الاتجاه الرومانسى
فى
شعر زكى مبارك

بقلم
د. مفيدة إبراهيم على عبد الخالق
أستاذ الأدب والنقد المساعد
بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

المقدمة:

الحمد الله والصلاة والسلام على أشرف المرسلين أفصح العرب لساناً وأوضحهم بياناً سيدنا محمد ﷺ، ورضى الله عن الصحابة التابعين.

وبعد ...

فإن فكرة الرومانسية فى أذهان الكثيرين تحاط بضبابية تُفضى فى أغلب الأحيان إلى تصورات غير دقيقة خاصة فيما يتعلق بالشعر والشعراء.

والظنون الشائعة حول الشعر الرومانسى توحى بأنه شعر مستغرق فى الذات يدور حولها ويعالج همومها بل ويهرب من مواجهة الحياة الواقعية طلباً لنوع مستحيل من البراءة والفطرة أو الاتحاد بالطبيعة أو الحب المثالى الذى ينتهى إلى الإخفاق غالباً.

فقد جاءت الرومانسية استجابة لحاجات جمالية فى الواقع الذى كان يندفع إلى التحرر من كافة القيود التى كانت تعوقه على النهوض - وهى تقدم إبداعها الجديد - قد أظهرت فى الشعر العربى ملامح رؤية فنية جديدة، تتشكل من خلال أدوات جمالية لم تتحقق من قبل على النحو الذى تحققت به فى ظل الرومانسية.

ولقد أردت أن أكتب عن شاعر من شعراء الاتجاه الرومانسى فى العصر الحديث، وكان اختيارى للشاعر **محمد زكى عبد السلام مبارك** موضوعاً للدراسة ذلك لأنه تأثر بالاتجاه الرومانسى كما تأثر بعض شعرائنا المحدثين وأن حياته الخاصة بما فيها من قلق وشك وحيرة وحياته العامة بما

فيها من انطباع للثقافة الشرقية والغربية، وبما ساد البلاد من كبت للحريات تشبه حياتهم إلى حد كبير.

وكان موضوع **(الاتجاه الرومانسى فى شعر زكى مبارك)** جديراً بالبحث والدراسة فى منهج فنى برغم الصعوبات فى جمع المادة العلمية التى سأعتمد عليها فى إخراج هذا البحث وكان من أهمها نتاج الشاعر ويشمل شعره فى ديوانه **(ألحان الخلود)** وقد قال فيه "إن كل بيت فى هذا الديوان قد وزن بميزان وكأنه صفحات من كتاب "النثر الفنى" أو صفحات من كتاب "التصوف الإسلامى" أو صفحات من كتاب الموازنة بين الشعراء"(١).

وديوان ألحان الخلود هو الديوان الثانى للشاعر ويضم بين دفتيه بعض قصائد الديوان الأول والذى كان يحمل اسم "ديوان زكى مبارك"، هذا بالإضافة إلى كتاب "نقد الشعر" وما نشر له من أشعار كثيرة فى مجلة "أبوللو" والمجلات الأدبية الأخرى التى كانت تصدر فى النصف الأول من القرن العشرين، بالإضافة إلى ما نشر أيضاً فى بعض الكتب التى تناولته، فوجدتها أشعاراً رومانسية فيها التعبير عن الذات وفيها الامتزاج بالطبيعة والثورة على القيود وفيها الخيال المجنح والقلق والحزن والأسى والكآبة وفيها الهروب من الواقع.

ونتيجة لذلك وزعت بحثى على عدة محاور بعد المقدمة:

الأول: محاولة فى تعريف الرومانسية.

الثانى: الوقوف على بعض ملامح من حياة زكى مبارك.

(١) أسماء كتب لـ زكى مبارك.

الثالث: الرومانسية فى الأغراض والمعانى منها:

(الشعر التأملى – الشعر الدينى – شعر الطبيعة – شعر الحب والمرأة – الشعر الاجتماعى).

ثم المؤثرات الفنية فى رومانسية زكى مبارك.

يليها الخاتمة وأهم النتائج.

الاتجاه الرومانسى فى شعر زكى مبارك

إن لفظ الرومانسية من الألفاظ التى تتمتع بسحر خاص فهى توحى بالحس المرهف وبالشفافية وبالنقاء الروحى، وبحب الطبيعة والجمال.

وهى دائماً مقرونة فى الأذهان بضوء القمر، بخميلة تضم العاشقين، بحر زاخر أو بجدول رقراق ...

رومانسى؟! إنه الشخص الذى تحلق روحه مع الأحلام، مع الأوهام، وهو الذى يجيش صدره بكل ما فيه من خلجات ونبضات.

رومانسى؟! من يهرب عقله من الواقع المادى، الحسى، من يسمو بوجدانه حتى يتصل بخالقه.

ولكن وراء لفظ الرومانسية أكثر من كل هذه الخواطر إن له مدلولاً أعمق وأكثر جدية. فالرومانسية مدرسة أدبية ظهرت فى القرن التاسع عشر ليس فى فرنسا فحسب ولكن فى معظم بلدان أوربا ثم انتقلت منها إلى الشرق العربى.

وهى توصف عادة بأنها رد فعل على غلو المدرسة الكلاسيكية، فإذا كانت الكلاسيكية تؤمن بالعقلانية فإن الرومانسية تعطى الأهمية الكبرى للقلب والأحاسيس والخيال قبل العقل، وبينما كان الأديب الكلاسيكى يصف الطبيعة ويعنى بذلك الطبيعة البشرية ولا يتكلم عن نفسه ولا يعبر عن ذاته فإن الأديب الرومانسى يتغنى بجمال الطبيعة المحيطة به ويعبر عن مكنون نفسه لأنه يعتقد أنه من خلال ذاته يعبر عن أحلام وآمال وآلام الآخرين.

ويخاطب "**فيكتور هوجو**" – وهو من أشهر شعراء الرومانسية – قارئه قائلاً[1]:

(١) الرومانسية فى الأدب الفرنسى – د. أمال فريد، ص ٥، دار المعارف، ١٩٧٧م.

"عندما أكلمك عن نفسى فإنما أكلمك عن نفس آه كم أنت مجنون لو ظننت أننى لست أنت!".

ومن ناحية أخرى فإن الرومانسية كانت تستهدف تحرير الأدب من كل القيود التى فرضت على الأديب. فإن قيل أن الرومانسية تعتبر ثورة فى الأدب، فالرومانسية قد قامت بتحريره.

وحين وصلتنا الرومانسية كنا نمر بمرحلة من تاريخنا تماثل فى ظروفها الاجتماعية والسياسية العصر الذى ولدت فيه الرومانسية فى أوربة، كنا نمر بمرحلة انتقال وكنا مشغوفين بكل ما هو جديد، تواقين إلى التحرر من كل القيود.

أحس كتابنا وشعراؤنا أن الرومانسية إذن هى أفضل وسيلة للتعبير عما يجيش فى صدورهم فالشاعر يعبر عن ذاته عن آماله وآلامه، عن حبه وبغضه تماماً كما كان يفعل "شاتوبريان" أو "الفريد دى موسيه" وغيرهما.

ومثل ما حدث فى أوربة، اصطدام التيار الرومانسى بالتيار الواقعى، فمع تغير طبيعة الحياة فى العالم العربى وتحت تأثير الحركة الإنسانية التاريخية والظروف الاجتماعية الجديدة شعر الأديب أو الشاعر أن عليه أن يغير هو الآخر فى أساليب تعبيره.

وبقى التيار الرومانسى يعطى ثماره، فهل يمكن أن نغفل الرومانسية والشاعرية التى نجدها فى شعر "**زكى مبارك**" وغيره.

إذا كانت الواقعية تبدو أكثر إيجابية لأنها تواكب أكثر التطور الذى حدث فى العصر الذى نعيشه إلا فإننا مازلنا نصبو أحياناً إلى مزيد من الرومانسية.

فالرومانسية تنتشلنا من عواصف العالم لتصل بنا إلى مرفأ الأمان، وهى الواحة الخضراء الوارفة الظلال التى نبحث عنها فى صحراء الحياة المادية المملوءة بالأزمات والصراعات.

ملامح من حياة "زكى مبارك":

ولد محمد زكى عبد السلام مبارك فى الخامس من أغسطس سنة ١٨٩١م، وبدأ ينشر كتاباته فى الجرائد والمجلات سنة ١٩١٤م، وحتى توفى فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١٩٥٢م.

وللأديب الشاعر الناقد الدكتور "**زكى مبارك**" عشرات وعشرات بل مئات ومئات من المقالات فى الجرائد والمجلات.

ومن المعروف أيضاً أنه صاحب لقب الدكاتره، وذلك لأنه فى شهر أبريل من عام ١٩٢٤ تقرر قبول الرسالة التى قدمها للظفر بالدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة بعنوان (الأخلاق عند الغزالى) وبعد ذلك حصل عليها بتقدير جيد جداً.

وفى اليوم الخامس والعشرين من إبريل سنة ١٩٣١م ظفر بالدكتوراه فى الآداب من جامعة باريس بدرجة مشرف جداً.

وفى اليوم الرابع من أبريل سنة ١٩٣٧م ظفر بالدكتوراه فى الفلسفة مع مرتبة الشرف من الجامعة المصرية الجديدة عن أطروحته (التصوف الإسلامى).

وآخر كتاب نشر له كان سنة ١٩٨٠م وهو بعنوان (الحديث ذو شجون) عن الهيئة المصرية العامة للكتاب.

كان "زكى مبارك" يعانى الأمرين من الجحود والنكران ولا يعرف وقع الجحود على النفس إلا الإنسان الوفى، فكيف يحيا بين الجحود والنكران وهو رمز الوفاء؟

يقول "**زكى مبارك**": "لقد ابتدأت حياتى الأدبية بأناشيد الحب والجمال، ولو خلاَّنى الناس وشأنى لعشت بلبلاً وديعاً، لا يسمعون منه غير أنغام الحنين".

ومن المعروف إنه كان كثير المعارك والمساجلات الأدبية مع كتاب عصره حتى صح فيه قول "أكثم بن صيفى": "إن قول الحق لم يدع لى صديقاً"(١).

ويقول "إبراهيم عبده" عن "زكى مبارك": "لم أر بين من عرفت رجلاً شجاعاً يقول كلمة الحق فى وجه صاحب سلطان دون ما تردد أو جزع مثلما كان يقولها "**زكى مبارك**" .. وقصة "**زكى مبارك**" فى التاريخ أشبه بحياة "**زكى مبارك**" جهاد متصل فى سبيل الأدب والشعر وفى سبيل العرب والعروبة دون تحية شكر أو كلمة وفاء"(٢).

وكتب الأستاذ "أنيس منصور" تحت عنوان (مواقف)(٣) يقول: "أنا أشعر بالعطف الشديد على كاتبنا الكبير الدكتور "**زكى مبارك**" فهو مفكر من نوع خاص وهو شديد الحساسية وله مواقف كثيرة ليست تقليدية ولم يكن حريصاً على أن يكون فى الطابور ومتعته هى أن يخرج على الإجماع ويقف بعيداً عن الناس ويسخر من الجميع ولكنه فى جميع الأحيان له رأى وله اجتهاد".

(١) عبقرى من سنتريس، محمد محمود رضوان، ص ٢١، الهيئة العامة ٢٠٠٤.
(٢) زكى مبارك ونقد الشعر، كريمة زكى مبارك، ص ٢٥، الزهراء للإعلام العربى، ١٩٨٦م.
(٣) جريدة الأخبار، ٢٧ نوفمبر ١٩٧٤م.

ويسترسل الكاتب "أنيس منصور" ويقول: "وقد أمتعنى الكتاب الذى صدر بعنوان "صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك" للأديب "محمد محمود رضوان"، فالمؤلف قد أعجب أيضا بـ "**زكى مبارك**"، ثم تابعه برفق ورافقه بحرص شديد ليقدم لنا صورة شفافة، فقد عاش "**زكى مبارك**" فى القرية وتزوج بها وخرج منها وعنها حتى سافر إلى أوربة وعاد ممزق النفس حائراً بين الذى تعلمه وبين الذى يرضى الناس، واختار حريته ومزاجه الخاص، ولأن التحديات كانت شديدة كان صوته عالياً ونبرته حادة واستراح إلى إغضاب الناس .. ولكن وراء هذه التحديات نفساً معذبة ...".

إن عظماء كثيرين سبقوه إلى الظلم – إلى أن يظلمهم الناس: سقراط وأوسكاروايلد وأندريه جيد وجان جينيه ومايكل أنجلو وغيرهم كثيرون، لم يغفر لهم الناس سقطاتهم، ولم يشفع لهم عند الناس هذا الجهد الهائل من التجديد والثورة على القديم والخروج من الصفوف التى مات عليها الفكر والإبداع فى كل العصور.

وتحت عنوان الدكاترة "**زكى مبارك**" كتب الصحفى "محمود صلاح" يقول[1]: "فى مثل يوم أمس من (٨٥) عاماً خرج إلى الوجود طفل جديد فى قرية سنتريس منوفية عاش ستين عاماً يصارع الحياة وتصارعه.

قال عن يوم ميلاده: ولدتنى أمى فى الخامس من أغسطس، فأضيف إلى الوجود خير جديد وشر جديد، ويعلق الكاتب "محمود صلاح" على قول "**زكى مبارك**" هذا بقوله: لكنه لم يكن شراً، بل جاء الشر فيمن حوله، فقد غادر الحياة بعد كفاح مرير صنع فيه من أجل الأدب الكثير وحصل على ثلاث شهادات عالية ليصبح بحق: الدكاترة "**زكى مبارك**".

(١) جريدة أخبار اليوم، ١٩٧٧/٨/٦.

ونمضى مع الذين تذكروا "**زكى مبارك**" كتب الأديب "عبد العال الحمامصى" تحت عنوان (الدكاترة زكى مبارك فلاح سنتريس فى سربون باريس) يقول[1]: "لم استطع أبداً أن أتجاوز لشاعرنا "حافظ إبراهيم" عن قولته: "ما أنت يا مصر دار الأديب ولا أنت بالبلد الطيب".

لم استطع رغم عشرات القصائد التى تغنى بها شاعر النيل بأمجاد مصر وعظمتها وأطلق يدب حياض كرامتها واستقلالها وشرفها .. لم تكن قولته تلك إلا تعبيراً عن مرارة أحس بها عندما افتقد حقه كما ينبغى أن يكفل الحق لشاعر مثله.

ولكن عندما أتذكر "**زكى مبارك**" هذا المفكر المصرى الفذ والناقد المتمكن والشاعر المبدع ورائد أدب الوجدانيات فى زمانه .. عندما أتذكر الجحود الذى حاق به، حيث لا يوجد فى مصرنا صاحب قلم ظلم الظلم الذى لحقه، أجدنى أردد قول "حافظ إبراهيم" وملء مشاعرى الأسى لأن "**زكى مبارك**" ظلم حياً حتى الأقدار ظلمته ميتاً، فقد لفظ أنفاسه الأخيرة.. وبعدها بأيام قبل أن تتأهب الأقلام لتبين مدى الخسارة التى لحقت بالأدب العربى بفقده، احترقت القاهرة يوم ٢٦ يناير وضاعت فى غمار الهول إمكانية إنصافه وطوى النسيان ذكراه كعادتنا إلا من بعض مبادرات فردية هنا وهناك ...

وعندما تنبهت وزارة الثقافة بعد مضى ربع قرن على رحيله وقررت أن تحتفل بذكراه فى قريته سنتريس تمت أحداث ١٨، ١٩ يناير المحزنة وكما نشبت الحرائق بعد رحيله نشبت قبل الاحتفال بربع قرن على هذا الرحيل وتأجل الاحتفال".

(١) مجلة أكتوبر أول مايو سنة ١٩٧٧م.

كان "**زكى مبارك**" فى حياته ملء السمع والذهن، بل كان ولا يذال يشغل ظاهرة أدبية فى ثقافتنا المعاصرة لها سماتها وملامحها المميزة.

وهو يشكل جانباً قوياً من تاريخ أدبنا العربى المعاصر وهو مرآة لجيل كامل فقد كان عنيفاً فى هجومه علىخصومه وكان إلى جانب ما امتاز به من العنف يحمل قلباً رحيماً (قلب شاعر). كما كان عالماً بارزاً فى الأدب والشعر والصحافة وكان يقول "(تبارك من جعل الأدب الصحيح موهبة الخلود)".

رومانسية زكى مبارك من حيث الأغراض والمعانى الشعرية:

لقد آمن معظم الرومانسيين ومنهم **زكى مبارك** بضرورة أن يكون أدبهم هو أدب الثورة على ما فسد من قيم ومواضعات أخلاقية واجتماعية ثم هو أدب التحرر الفكرى والسياسى، وهو بعد ذلك أدب الفرد والعبقرية الفردية والحرية فى الفن(١).

وكان هذا الإيمان الرومانسى بوظيفة الفن مترجماً لفلسفة العصر الحديث فى مصر التى سادت فى ظلها الدعوى إلى التحرر، وهى التى دفعت وساندت ثورة ١٩١٩م، وكانت الدعوة إلى التحرر الأدبى هى انعكاس للدعوى إلى التحرر العام.

وكان لإسهامات "خليل مطران" و"عبد الرحمن شكرى" المبكرة فى هذا المجال صداها الواسع عند الرومانسيين من بعدهما، يقول عبد الرحمن شكرى فى مقدمته للجزء الثالث من ديوانه المطبوع سنة ١٩٥١م: "الشعر مهما اختلفت أبوابه لابد أن يكون ذا عاطفة وإنما تختلف العواطف التى

(١) تاريخ الأدب الفرنسى، ج٢، جوستاف لانسون، ترجمة محمود قاسم، ص ٢٨١، طبع الألف كتاب، القاهرة، ١٩٦٢م.

يعرفها الشاعر، ولا أعنى بشعر العواطف وصف كلمات تدل على التوجع أو ذرف الدموع، فإن شعر العواطف يحتاج إلى ذهن خصب وذكاء وخيال واسع لدرس العواطف ومعرفة أسرارها وتحليلها"(١).

ويلتفت "عبد الرحمن شكرى" مبكراً إلى دور العاطفة وضرورة أن يركز الشعراء على الجانب الذاتى فى تجربتهم الشعرية، كما يلتفت إلى دور الخيال فى العملية الإبداعية فهو الذى يساعد على التأمل الذاتى ودرس العواطف والتعرف على أسرارها ثم كان لـ "خليل مطران" و"ميخائيل نيعمة" و"العقاد" و"**زكى مبارك**" دور مكمل لهذه البداية التى تدعو إلى تحرير الشعر.

وقد ساعدت هذه الإرهاصات النقدية وما قدمه هؤلاء الرواد من تجارب شعرية على نمو الاتجاه الرومانسى وازدهاره.

ومؤدى ذلك أن الاتجاه الرومانسى راح يمتد شيئاً فشيئاً فى أرض الواقع الأدبى فى مصر حتى استكمل عناصره الفكرية والجمالية فى الثلاثينيات والأربعينيات التى شهدت الازدهار الرومانسى.

ويرى الدكتور "عبد القادر القط" – مخالفاً: "أن بداية العقد الثالث من القرن الشعرين إيذان بمرحلة الازدهار التى أصبح الاتجاه الرومانسى فيها ذائعاً فى الوطن العربى كله سائداً فى أغلب نتاجه الشعرى"(٢).

(١) ديوان أناشيد الصبا، عبد الرحمن شكرى، ص ٢٠٩، م منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦٠م.

(٢) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر، ص ٣٠١، م الشباب بالقاهرة، ١٩٨١م.

وتعنى هذه الدراسة بالشاعر "**زكى مبارك**" وهو ضمن الشعراء المصريين الذين تحقق على أيديهم الازدهار الرومانسى خلال النصف الأول من القرن العشرين، وقد تبلور من خلال هؤلاء الشعراء الفكر الفنى الجديد فى صراعه مع التيار المحافظ، وكانوا على وعى كامل بأن حركتهم الجديدة هذه جاءت استجابة لروح المرحلة الساعية إلى تحقيق الحرية، فكان عليها أن تتسلح فكرياً لتحقيق هذه الحرية فى مجال التعبير الشعرى بكل ما تستطيع امتلاكه من وسائل الثقافة وأدوات الفن.

ولذا فإن "**زكى مبارك**" عمل على استيعاب ما استطاع وهو كثير بالنسبة لغيره من الثقافة العربية والغربية، وبصفة خاصة ما يتصل منها بفن الشعر ونقده فى بعض القديم العربى وكثير الحديث الغربى.

ومن أهم ما يميز رومانسية "**زكى مبارك**" هو التفافه حول ذاته، وكان هذا الالتفاف عنده "خروجاً من العقلانية المترفعة لدى الإحيائيين الذين ساعدوا فى دعم دعوة الفكر الكلاسيكى" إلى قرار الاستقرار الاجتماعى والسياسى والمحافظة عليه.

ولذا فإن الرومانسيين كانوا يفضلون العيش فى خطر ومن هنا أخذوا يبحثون عن المغامرات بدلاً من السعى إلى الأمان، واحتقروا الراحة والسلامة على أساس أنها تحط من قدر الإنسان(١). وقد أدت نزعة العيش فى خطر بالرومانسى إلى قدر حاد من التناقض فى الاتجاه الرومانسى وفى ظل هذا التناقض اعتد "**زكى مبارك**" بالخيال باعتباره الأداة التى يدرك بها عالمه ويتجلى هذا الاتجاه الرومانسى فى الشعر الذى أبدعه فى ظروف متعددة أهمها موقفه من الذات التأملية والطبيعة والمجتمع والكون.

(١) القصيدة الرومانسية فى مصر، د. يسرى العزب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص ٢٩.

وسوف أتوقف عند كل منها بشئ من التركيز مؤكدة على حقيقة فنية وهى تعذر فصل هذه العناصر فى التراث الشعرى لأن الرؤية الرومانسية تمزج بينها جميعاً.

أولاً: الشعر الذاتى والتأملى:

سيطرت النزعة الوجدانية على شعر "**زكى مبارك**" الرومانسى بدرجة كبيرة حتى إن مفهوم الشعر عنده أصبح متحداً مع عواطفه يقول(١):

لو حبيبُ القلب بالقرب يجودْ
لرشفتُ الرَّاح من هذا الوجود
وأمرتُ الدهرَ أمراً بالسجود
للذى ينظُمُ ألحانَ الخلود

إن الشاعر يركز هنا على العاطفة والخيال ويؤكد أن شعره وحى قلبه وروحه.

ويرى أن أعذب الألحان ما أفرغت فيه أنات الأسى أى ما مثل الذات الشاعرة بما تحمل من عواطف آسية وانفعالات حزينة يقول الشاعر(٢):

أُحبكُم؟ ماذا أقول؟ لقد صحا فؤادى وأبصرتُ الطريق إلى الرُّشد
عواطف جالت فى ضلال كأنها بوارق فى جنح من الليل مسودِّ
عشقتكم؟ قد كان ذلك وانطوت صحائف خطتها يد العبث المُردى
فلا تذكروا عهدى بسخط ولا رضاً تناسيت أو أنسيت ما كان من عهدى
أضاليل أزجيها لنفسى علالة عسانى أطفى ما تضرم من وجدى

(١) مقدمه ديوان ألحان الخلود، م مصر، ١٩٨٨م.
(٢) الديوان نفسه، ص ٤٧.

وهكذا فإن النزعة الوجدانية قد غلبت على شعره الرومانسى فأصبحت العاطفة الإنسانية ظاهرة تمتد لتحتوى أشعاره وترجع هذه الظاهرة الذاتية إلى بحث الشاعر الدائم عن وجوده المستقل ومحاولة تحقيق هذا الوجود بالتأمل والتفكر فى الحياة وما وراءها.

وإذا تأملنا شعر "**زكى مبارك**" موضوع الدراسة وجدناه شعراً رومانسياً خالصاً يمتاز بالتحرر والجرأة ويحفل بالثورة والتمرد والقلق، وفى قصيدة له بعنوان "الناس والزمان" يتأكد عدم رضا الشاعر عن هذا العالم الفنى يقول(١):

زمـان لم أجـد فيـه صـديقاً أشـاطره سـروری إن فرحـتُ
فكيـف يكـون لى فيـه صـديقٌ أنادمـه بحزنـى إن حزنـتُ
عرفت الناس من شرق وغربِ فو أسفى على من قد عرفتُ
لقـد مـاتوا ومـاتوا ثـم مـاتوا ونقضُ العهـد والميثاق مـوتُ
عليهم قد بكيت فلست أبكى على زمـن بصـحبتهم أضـعتُ

فى هذه الأبيات يجد الشاعر فى الوحدة خلوصاً للذات، يجعلها أشد استعداد للتأمل الوجدانى فيقرأ الزمان والناس فى وضوح لا يعوقه تكلف أو اضطرار أو حبس لحرية الذات فى كشف الحقيقة التى هى رسالة الشاعر الذى يجاهد لإرسائها بين البشر دون فائدة(٢):

تمـردت الـدنيا علـىَّ وأقفـرتْ فلـم يبـق لى فـى غـير دارتكـم وردُ
إذا ثـار وجـدى قلـت تلـك بقيـة من العيش يُحْيينى بها ذلك الوجد
أسـائل عـنكم حاسـديكم كـأننى مضيتُ وما لى من مودتكم عهد

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٣٣٢.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٨٩.

وهنا يبتعد الشاعر مضطراً عن الناس وعن واقعهم ليخلق لنفسه واقعاً جديداً ممتلئاً بالصفاء، ويعيش بخياله فى عالم نقى من الزيف والكذب والنفاق وعدم الوفاء بالوعود والعهود.

لقد وجد الشاعر فى العزلة مأوى لأحلامه ومنجاة من اغترابه فتوسل إلى المجهول أن يأخذه من بين البشر يقول(١):

لم أمت بالجوى كما قد ظننتم إنما مات بالجوى من جفانى
أنا لو شئت توبة الروح منكم هام عقلى بكم وهام بيانى
كل صحو من الهوى سوف يُمسى فى رحيق الأشواق بعد زمان

وترفض روح الشاعر القيود وتجد فى سبيل التخلص منها ابتغاء تحطيم الحواجز بين الأزمان والأماكن وبين الكل وأجزائه وبين الوجدان والعقل وبين الذات والموضوع فيما سماه (ثورة على الوجود) يقول(٢):

يا خافقَ البرق ترتاعُ القلوب لهُ كوقْدَةِ الغيظ فى أحشاء جبَّار
تعالَ أهديك من روحى بعاصفةٍ تُرْدى الأنام ومن قلبى بإعصارِ
الناسُ ما الناسُ لا تدرى سرائرهم وما يُجنَّون من كيد ومن نارِ
لو يُفصح الغيب يوماً عن مصائرهم لأقصرَ اللؤم قوم أى إقصارِ

إلى هذه الدرجة من العمق يصل إحساس الشاعر بأضداد الواقع وما يمثله من لؤم الزمان والناس والأهوال والأقدار التى تتجمع فى ملحمة من الأسى مغلفة بالأسرار، وهنا ندرك مدى الفداحة التى كان الواقع العام فى مصر يعانى منها فى الثلاثينيات والأربعينيات من القرن العشرين وأراها حتى الآن.

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٣٢٣.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٧١.

هكذا أطال "**زكى مبارك**" العكوف على نفسه وأمعن فى التأمل فى الحياة فهاله ما يعتريها من ثورة واضطراب وما يحدث فيها من صراع بين الخير والشر والحق والباطل، فقد تأمل فى كل شئ فى الحياة والكائنات والقضاء والقدر حتى أنه يقول فى قصيدة بعنوان (قلب تثيره العواصف)(١):

تغضَّبت الأقدارُ فاربدّ وجهُها بوجه سماءٍ تعلن السخط بالسُّحْب
مقاديرُ كالحب العَصُوف غليلُها غليلُ شياطين تُجنَّح بالشهب
لقد جُنَّ هذا الكونُ جُنَّ جنونهُ فأصبح كالليث المجوَّع فى السَّهب
أهذا زئيرُ الكون، أم تلك صرخةٌ مضرَّجة الأنفاس يَرْمى بها قلبى

وبهذا يتضح أن "**زكى مبارك**" كان يثور على اضطراب الحياة فى عالم يسوده الشر وانتهت ثورته بالتمرد ولكن وراء هذا التمرد عقيدة راسخة بوجود إله متحكم فى هذه المصائر التى هى موضع التمرد، يقول فى (قضاء الله)(٢):

إن الذى خلق الملاحة لم يشأ إلا شقائى فى الهوى وبلائى

ويقول(٣):

لم أَعُد شاكياً فمات أنينى لم أعد باكياً فمات نحيبى
كيف أحيا إذنْ؟ ألا إن عيشى فى زمانِ السلُّوِّ عيشُ الغريبِ

إن وحدة الشاعر فى رؤيته الرومانسية هجرة إلى الفكر بمعنى التأمل فى الكون وهو ما يريده الشاعر لذاته لكنه يجد نفسه بين الناس على نقيض ما يريد فى هجره لفكره ولذا فهو غريب.

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٩٨.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٢٤.
(٣) الديوان نفسه، ص ٢٢٥.

وهذا يؤكد أن اغتراب واعتذال الرومانسى للواقع لم يتم اختياراً حتى إن سعى إليه أو تمناه بل إنه كان فرضاً اجتماعياً تضخم الإحساس به عند الرومانسيين.

ثانياً: شعر الحب والمرأة:

إن الحب عند "**زكى مبارك**" حب صادق يمجد العاطفة ويقدس كل صور الحب الموجودة فى الحياة، وتغنى الشاعر بالحب وللحب فى كثير من صوره فنجده يؤمن بالحب إيماناً عميقاً لأنه شريان الحياة الذى يربط بعضنا ببعض ويهون متاعب الحياة حيث يجعلها جميلة أو محتملة فيقول(١):

إنى بحبك مشغولٌ تساورُنى أطيافُ حسنك فى أعماق وجدانى
أصاحبُ الناسَ تُرضينى خلائقُهم لعلنى أتناسى نار أشجانى
فما أشاهدُ فى كل الوجود سوى جمالك الفَخْم يَهْوَى أسرَهُ العانى
لولا جمالكَ تُصبينى فواتِنُه ما فُقْتُ فى الشعر والتغريد أقرانى
حَنَا الجمالُ على روحى يسامرهُ بشائق من أغنِّ الصوتِ فتان
فقمتُ أرسلُ لحنى فى ذوائبهِ هوًى يصولُ بأدواح وأفنان

وقد بلغ من تقديسه الحب أن يقول(٢):

أصوغُ وَحْىَ فؤادٍ أنت ملهمُه حتى غدا من جواهُ خير فنَّان
يا وجد قلبى ويا حُسْنًا أدين له بالفاتن الجَزْل من شَدْوِى وألحانى
جمال وجهك فى تقسيمه عَجَبٌ كأنه حليةٌ صيغت بميزان
لو كان وجهُك فى ماضى العصور بدا لصار معبود أحبارٍ ورهبان
استغفر الله وهو المستجارُ بهِ من أن تصيِّرنى عُبَّاد أوثان

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٧٩.
(٢) الديوان نفسه، ص ٨٠.

يهفو إليك ضمير أنت غايته من جَنةٍ أنا فيها الغارسِ الجانى
غرستُ حسنك فاذكرْ بالجميل يدى يا زهرة نشأت فى رَوض جَنَّان
لولا قصيدى ولولا ما هتفتُ به ما صرت كالبدر فى حُسن وتحنان

كما عرض كل صور الحب فى شعره فصور حب الحياة وحب الطبيعة وحب الحبيبة وغيرها، كما أنه اتخذ الحب موضوعاً للتأملات الذهنية فرآه فى كل جميل يتأمله ففى قصيدة (بعد ليلة غرام) يقول[1]:

أضاليلُ أرويها لروحى دعابة وهل مثلُ روحى فى الغرام يُضلَّل؟
أسيتُ لروحى كيف يشقى بحبه وما كان لولا نضرة الحسن يفعلُ
أأنت الذى بالأمس عاقرتُ روحهُ وروحىَ من نور الصباحة يَنْهل؟
أأنت لعل الدهر يسمح مرةً فيصبح لى فى ذلك الروض موئل
أصابر روحى فى هواك لعلنى إذا عيل صبرى فى رحابك أنزل
أحاربُ آلامى لأنسى صبابتى وبعضً الحروب السود للقلب يشغل

لقد قدس **زكى مبارك** الحب وصوره المختلفة وكان حب الرجل للمرأة هو أبرز هذه الصور، وليس المرأة عند الرومانسيين صورة جسدية فحسب بل هى تكوين رائع من الجسد والروح معاً، ولهذا فإن ذات الشاعر حين انجذبت إلى المرأة كانت منجذبة إلى هذا التكوين.

ومن هنا فإن عاطفة الحب كانت محوراً أساسياً فى علاقته الرومانسية بالمرأة وهذا شئ طبيعى من شاعر يمجد العاطفة ويقدس الحب، إذ أكثر الرومانتيكيين يقولون[2]: "بأن المرأة ملك هبط من السماء يطهر قلوبنا بالحب ويرقى بعواطفنا ويذكى شعورنا ويشجعنا على النهوض بأعباء

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١٠١.
(٢) الرومانتيكية، د. محمد غنيمى هلال، ص ١٤٩، ١٥٠.

واجباتنا الخلقية والسياسية والوطنية ... ولكن إلى جانب هؤلاء كان قليل منهم يرون فى المرأة رأياً مناقضاً فهى عندهم شيطان يضل الناس ويغويهم وكثيراً ما كان يلجأ إليه الشعراء حين يصفون من غدرن بهم من النساء".

ففى الحب يجد الشاعر خلاصه من وحدته وإحساسه بالاغتراب يقول فى قصيدته التى هى بعنوان **(الشعر العربى يتحدى الشعر الفرنسى)**[١]:

وجهٌ هو الحسن فى لألاء طلعتهِ خدٌّ به النحل ترجو شهر آذار
وجهٌ غريمُ لروحى إنه قَبسٌ من لوعتى وصباباتى وأشعارى
خدٌّ إذا ذقته بالوهم ثار دمى بلاعجٍ من سعير الوجد قهار
أصبو إلى طلعة لو ساورتْ جبلا لصيرته تراباً فوق أحجار
يا فوق ما تشتهى روحى تعال تجدْ روحى لروحك تشكو غربة الدار

كما يرقى الحب فى علاقة الشاعر الرومانسية بالمرأة فيصل إلى درجة التقديس بحيث يصير الحب حالة تقترب من وجد الصوفى وعشق الزاهد فيقول فى قصيدة (من حرب إلى حرب)[٢]:

يا جمالَ الجمالِ، والحُسنُ رزْقٌ هو خيْر الأرزاق والثمرات
وحيُك الوحىُ، فليكن من جَزائى أن أناجى هناكَ فى صلواتى
عندك الحُسنُ والفصاحة عندى يا فصيحَ الألحاظ والبسمات
لا تُقاتلْ هواىَ بالصد عنى إن شوقى إليك روحُ حياتى

ويصرح الشاعر بهذه الرؤية المقدسة للحب كثيراً فى شعره ومن ذلك قوله للمرأة التى يحبها[٣]:

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١٦٣.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٢٧.
(٣) الديوان نفسه، ص ١٦٤.

إنـى أحبـك حبَّـاً لـو فطنـتَ لـه لطرتَ تسأل عن حالى وأحوالى
نسيتُ روض المعنى فى أزاهره وأنت وحدك يا محبوب فى بالى

وهو يناجى محبوبته فى قصيدة بعنوان **(بعد ليلة غرام)**[١]:

أيُخْلِفُ ميعادى "الجمالُ" وإنه ليعرفُ أن الموت إن خان أسهل؟
عواطفُ سقناها إلى غير أهلها فلا تعذلونى إننى أتفضل
خلعتُ على أهل الجمال غوايتى وإنى إذا ما شئت فى الحب أبذُل
أُلوفٌ من الأرواح هانتْ فصُنتُها وأكرمتها - إنى أقولُ وأفعل
إذا ضاق جَيبٌ من جميلٍ فإننى أشُقُّ جيوبى ما أراد وأفضل
إذا كان للعشاق فى الحب شرعةٌ فإنى بحمد العشق والحب أول

إن الحب فى رؤية "**زكى مبارك**" خالص الجمال فى أبهى الصور ورقة النسيم ولألأة الأضواء ويرتبط موقف الحب عند الشاعر الرومانسى بالخمر التى يحلو للحبيبين أن يجتمعا فى محلها فيقول[٢]:

قد سقيناها فلم تعرف هدًى نَشْوة ا لأيام راحٌ بعدَ راحٌ
وإذا رُحُت على أنغامها ذهبَ الهمُّ بعيداً ثم طاحْ
سكرَ الشعرُ فغنَّى وشدا وبأسرار الهوى المكنون باح
ما لقبٍ غير قلبى نشوةٌ إنه يسكر بالماء القَراح
الرحيقُ الصرف فى روحى وفى خاطرى، والسكُر بالروح مباح
لا تسَلْنِى عن تباريح الهوى إنها فى القلب والروح جراح
آهِ من قلبٍ تعالت ناره فاشتوى المضمور منه ثم فاح
كان ظنى، والأمانى ضَلَّةٌ أن حبى للمليحات مزاح

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١٠١.
(٢) الديوان نفسه، ص ١٠١، ١٠٢.

إن يكـن حبـى مزاحـاً فاسـألوا عن غريب السر فى هذا المزاح

ويبدو هذا واضحاً فى قصيدة بعنوان **(أدب الربيع)** يقول[1]:

أراه فـى كـل حسـن يُسـتهام بـه بين الخلائـق مـن جِنٍّ ومـن نـاس
متـى تعـودُ وللأكـواب وسوسـةُ من فورة الراح يا وسواس وسواسى

ولأن الرومانسيين شديدو الحساسية نراه يبالغ فى تصوير عواطفه وهذه المبالغة فى التصوير واحدة من أهم سماته فى التعبير عن علاقته بالمرأة، ويرجع ذلك إلى الغرام العفيف نتيجة هذه المشاعر الصوفية وتلك العلاقة المقدسة الذى لا يترك للإنسان اختياراً أو قدرة، إنما هو قدر وجبر لا يملك المحبوب إزائهما الفكاك من أسر الحب ونلمح ذلك فى قصيدته الرائعة **(الشعر العربى يتحدى الشعر الفرنسى)** يقول[2]:

أأنـت تجهـل أنـى عاشـقٌ كلـفٌ كتمانُـه لضـمير الوجـد إعـلانُ
بالصـمت أعلـن سـرى بالصـمت تعلـن سـرَّكْ
والسـر فـى الحـب جهـرٌ فاكتم على الصب جهركْ
لا تقـل إننـى محـبٌ فـإنى لست أهلاً لروض هذا الجمالِ
.....
أنـا وافٍ بمـا وعـدتُ فـدعنى أنثر الروح فى طريقك دَعْنى
أبكـاءٌ؟ أأنـت تبكـى لأنـى لم أبح بالـذى تكتمتُ عنـى
هوايَ لا تعرف الأقدار مصدرهْ إن الفتـى الحـر للأسـرار كتَّـامُ
هـوايَ، مـا أمـرُه؟ إنـى لأحسبه طيفاً تجـد بـه فـى النـوم أحـلامُ

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٢٣.
(٢) الديوان نفسه، ص ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥.

تلك القصيدة التى تعبر عن الحب الرومانسى الصادق الذى يرى فى الحبيبة كل معنى الجمال بل يرى فيها جمال الحياة وروعة المعبود ولذلك يطلب منها أن تنقذه من حياته المملوءة بالقيود.

ونلاحظ أن "**زكى مبارك**" يمزج الغزل بالشكوى والحنين إلى أيام الحب حيث يقول فى قصيدة بعنوان **(تاريخ القتال بين مصر الجديدة وحلوان)**[1]:

إننى قد جَرَحت قلبك جرحاً هو أشهى مآثمى وذنوبى
وَثْبةٌ حُرَّةٌ يهون عليها أن يعضَّ العليلُ وجه الطبيب
يا عليلاً دواؤه فى يديه إن تغذَّى بأدمعى وطُيُوبى
يا عليلى تعال إننى عليلٌ قد تجافت عن الفراش جُنُوبى
أقطع الليل والنهار سُهاداً ما عناء الغرام من تعذيبى
أنا غنيت وَحْىَ حُسنك فاسمع قد يواسى الغريب روح الغريب
إن تَمُتْ، لا تمُتْ، فوحىُ هوانا هو وحىُ الحياةِ وحىُ القلوب

كما أن غزله لا نجد فيه صفات خاصة بامرأة معينة مما يدفعنا إلى القول بأن الشاعر كان يحب المرأة بصفة عامة.

وأرى أن النظرة التى اتبعها الشاعر فى وصفه للمرأة تلك النظرة الروحية التى ترفعت عن المحسوسات وإن بدا لنا ذلك بالإضافة إلى أن معظم شعره يعبر عن الحرمان ويدل على عدم الصلة الواقعية بينه وبين الحبيبة.

ومما يؤكد معاناة "**زكى مبارك**" للحرمان المضنى ذلك الشوق واللهفة والحنين للمرأة الذى نجده فى قصائده **(لقاء جمال الجمال)**[2] **(ورسالة جمال**

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١٥٨.
(٢) الديوان نفسه، ص ٨٦.

الجمال)[١] وقصيدة **(بعد ليلة غرام)**[٢]، و**(من جحيم الظلم فى القاهرة إلى سعير الوجد فى بغداد)**، و**(صاحب الضفائر الذهبية)**[٣]، و**(تاريخ القتال بين مصر الجديدة وحلوان)**، و**(الشعر العربى يتحدى الشعر الفرنسى)** التى وصفت من بعض النقاد بالاتجاه الحسى المثير فى غزل الرومانسيين وأقول وإن وضح لنا ذلك من خلال بعض أبيات هذه القصائد إلا إنه لا يقدح فى تقديس "**زكى مبارك**" للحب واحترامه للمرأة.

وبعد أن استعرضت موقف الشاعر من المرأة وغزله فيها وحبه لها أشير إلى أنه مزج الغزل بأغراض الشعر الأخرى كحب الطبيعة مع تشخيصها وإحيائها وشكوى الزمان والناس والتأمل فى الحياة والأحياء.

كما أنه فى غزله لم يهتم بإبراز مفاتن الجسد ووصفها بقدر ما اهتم بالتعبير عن شوقه وانفعاله بها هذا بالإضافة إلى أنه كان يعبر عن الحرمان ويجنح إلى المبالغة فى تقدير الحبيبة وتصويرها ويختلط بالحزن والشكوى من البعاد والفراق ويأمل دائماً فى اللقاء.

وهكذا تكونت الصورة الرومانسية عنده من المرأة التى أحبها وأخلص فى حبها إلى درجة التقديس أحياناً والعبادة لأنه كسائر الرومانسيين وجدوا فى اكتمال العلاقة معها تعويضاً عما افتقدوه من أشياء كثيرة فى الواقع.

وقد أدى هذا الإحساس قوى بالاغتراب لجأوا معه إلى الحب كما لجأوا من قبل إلى الوحدة، لقد أصبح الحب عند الشاعر أكثر من مجرد علاقة إنسانية تجمع بين رجل وامرأة فارتقى فى رؤيته ليصبح إحدى الفضائل الإنسانية[٤]:

(١) الديوان نفسه، ص ٢٩٢.
(٢) الديوان نفسه، ص ٨٥.
(٣) الديوان نفسه، ص ٢٤
(٤) الرومانتيكية، د. محمد غنيمى هلال، ص ١٨٣.

ثالثاً: شعر الطبيعة:

تحت ضغط ظروف الحياة التى عاشها "**زكى مبارك**" لم يجد أمامه إلا الطبيعة تلك الأم الرؤوم التى تحنو عليه وتخفف عنه الآلام.

لقد نظر الشاعر إلى الطبيعة فقدسها وافتتن بكل ما فى مظاهرها من روعة وجلال، بل لقد بلغ من حبه إياها وشغفه بها أن امتزج بها وشاركها الآمال والآلام كما جعلها مرآة تعكس ما فى نفسه ورفيقاً يشاركه الأفراح والأتراح كما فعل الرومانسيون.

فالطبيعة عند الرومانسيين تمنح القدرة على التأمل، كما تعطى خياله الفنى الفرصة للعمل، لأن "الخيال فرار من واقع مرذول إلى ممكن مأمول، حتى إذا ما تحول هذا الممكن إلى واقع أصبح حقاً ولم يعد جمالاً فيعود إلى فرار جديد من عالم الحقيقة إلى عالم الممكن المتصور"(١).

والذى دفع "**زكى مبارك**" إلى الطبيعة أنه كان ضائقاً ذرعاً بما يضطرب به المجتمع من حوله فأولع بالطبيعة وكانت تروقه الحياة بين أحضانها ليخلو إلى ذات نفسه.

فقد أحب الرومانسيون الطبيعة حباً جماً يقرب من العبادة فدعا "رسو" أبو الرومانسيين إلى العودة إليها وفضل بساطتها وطهارتها وهدوئها على ما فى المدينة من زيف وضلال وضوضاء، وجاء بعده تلاميذه من الرومانسيين أمثال "وردزورث"، و"بيرون"، و"شيلى"، و"كولردج"، و" لامارتين"، و"الفريد دى موسيه"، وأضرابهم فقدسوا الطبيعة ولجأوا إليها فراراً من المجتمع الظالم والحياة القاسية.

(١) مع الشعراء، د. زكى نجيب محمود، ص ١٠٩.

وقد كانت المظاهر البسيطة الفطرية التى لم يشبها التصنع والتعقيد أحب مظاهر الطبيعة إلى قلب "**زكى مبارك**" شأنه فى ذلك شأن الرومانسيين الذين انطلقوا إلى الريف حيث الحياة الخالية من الزيف والخداع والتصنع الذى أفسد المدينة وأبعدها عن المثالية والبساطة والجمال الذى ينشدونه فى حياتهم.

على أن عشق الرومانسيين للجمال، يقف وراء لجوئهم إلى الطبيعة كما وقف من قبل وراء لجوئهم إلى المرأة، يقول "**زكى مبارك**" مخاطباً جمال الريف فى قرية "سنتريس"(١):

إيه يا فتنةَ الوجود سلامٌ من مَشوقٍ متيم القلبِ عانى
لو يشاءَ الهوى حوتْك ضلوعُ حائماتٌ على صباكِ حوانى
فارحمى فانياً من الوجد يشقى بغرام مؤجَّجٍ غير فانِ
رنّقت ورده الليالى فأمسى يرقب الصفو من خلال الأمانى

فالشعر يرى فى الريف مجالاً دائماً يفتقده فى حياة المدينة فلم يقف منها موقف المتفرج المندهش بجمالها بل نجد فى شعره تعاطفاً معها يقول(٢):

ليالىَ النيلِ واللذاتُ ذاهبةٌ وجدى عليكنَّ أشجانى فأضنانى
لو يُرجعُ الدهرُ لى منكن واحدةً فى سنتريس ويُدنى بعض خلانى
إذنْ تبيّن دهرى كيف يرحمنى من ظلم همى ومن عدوان أحزانى

* * *

كم ليلةٍ فى جوار النيل ساجيةٍ قضيتها بين غاداتٍ ووُلدان
أعارضُ البدر فى إشراق طلعتهِ بأغيدٍ مُشرق الأوصال ريان

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٦٤، ٢٦٥.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٦٩.

وأستبيحُ من اللذات ما رسمتْ أهواءُ صَبٍّ غويٍّ القلب شيطان
وأسلم اللومَ تلحانى قوارصُهُ إسراف لاهٍ طروب الروح جَذْلانِ

وهنا يتشوق "**زكى مبارك**" إلى لياليه فى "سنتريس" ونذكر هنا بهذه المناسبة أن شاعرنا يؤكد لمحدثيه أن الإنسان إذا ركب ومضى على الرياح المنوفى عرف "سنتريس" من غير سؤال إذ يحس قلبه يخفق حين يدنو منها، فالطبيعة فى الرؤية الرومانسية تمتلك مشاعر إنسانية أقوى من مشاعر الإنسان نفسه.

ويؤكد الشاعر ارتقاء تعاطفه مع الطبيعة - ممثلة فى إنشائها - إلى درجة الامتزاج حين يقول(١):

لقد ضجَّ الكونُ ضجَّ ضجيجه وثارت به جنٌّ تزفُّ وتعزف
عواصفُ هُوجٌ شاكياتٌ بأدمع من المطر الثجاج بالوجد تنظف
تجاهد أشجارُ الحديقة بأسَها بأجذاعها، والحر فى البأس يُعرفَ
إذا جَلْجَل الريح العصوف تماسكت وأغصانها من قسوة الريح ترجف
وما خوف أطفالٍ أبوهم مجاهدٌ على نائبات الدهر بالبأس يزحف

إن "**زكى مبارك**" وهو يلوذ بالطبيعة لا ينفصل عن الواقع، بل يمتزج به إن الطبيعة بما تحمل من يقظة ستدفع بالإنسان إلى اليقظة ويستمتع بكل هذا الجمال الذى صنعه الخالق الوهاب فيقول(٢):

أبرِقى يا سماءُ فالبرقُ نُورٌ أرعدى يا سماء فالرعد صوتُ
إننى أبتغى الرعود لروحى إن بعض السكون فى العيش موتُ

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٨٦، ٨٧.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٩٤.

وفى الطبيعة يجد الشاعر الفرصة لتحقيق الذات لأنه يراها جزءاً من المثال الذى يسعى إليه يقول من قصيدة **(أدب الربيع)**[١].

خلعنا على الدنيا الجمالَ فأصبحت طرائفَ من نسج اليمانينَ للبرد
وصُلنا فصَّيرنا الوجود كريهةً تَشُبُّ لظاها فى الوغى أسيُف الهند

إنى إلى الورد عدتُ فى حماه نزلتُ
أصليته نار قلبى فراعهُ ما صنعتُ
فالجمر فى وجنتيهِ مما عليه خَلعتُ
من اللظى بات يشكو ياليتنى ما فعلت!

ولم يجد الشاعر بداً من العودة إلى الحياة على الأرض، ولكنها حياة الوحدة مع الذات والامتزاج بالطبيعة، الملجأ الوحيد الذى يخفف عنه وطأة الواقع النفسى القاسى الذى يعيشه ويتوهمه أحياناً ويعانيه فى قوله[٢]:

أتيت لهز الزهر أبغى وصالَه فأظهرَ ما عند الحرائر من كَيْدِ
ومن أنت يا زهرَ الربيع ولم تكن سوى وَجْنةِ مقبوسةِ النار من وجدى
صباياك يا زهرَ الربيع كثيرةٌ وأفتكُها ما يُؤْذِنُ العين بالسُّهدِ
تمنيت لو أنى اعتصرتُ خدودها جميعاً لأحيا بالعصير من الورد
وهل فى حياة المرءِ إلا لُحَيْظةٌ إذا لطُفت كانت شراباً من الخد

ويرى الشاعر الرومانسى فى الطبيعة المرآة التى تنعكس على صفحاتها صورته النفسية بما يعتمل داخلها من مشاعر وأحاسيس، وفى هذه المرآة تبدو النفس والطبيعة شيئاً واحداً، فنرى شاعرنا قد حزن حزناً شديداً حين رأى الأزهار وقد خالطها الشوك ومسها الفناء يقول[٣]:

(١) الديوان نفسه، ص ٢٢٣.
(٢) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٢٢.
(٣) الديوان نفسه، ص ٥٥، ٥٦.

جارتْ على الورد فى أيام نَضرته نسائمٌ خاف منها عِطره الباقى
إن يجزع الوردُ مظلوماً فلا عجَبٌ العيش للشوك يسقى ساقه الساقى
إن اللئام تواسيهم نحائزُهم بوابلٍ من هَتُون اللؤم دَفَّاقِ
إن يظفروا فالليالى فى عواقبهم ظلماً بظلمٍ وإرهاقاً بإرهاقِ
يا مَن أخاف إذا ناجيتُ صورته بالغيب أن تَشهدَ الأيام إحراقِى
ومَنْ سرائرُه عنى مُحجَّبةٌ كأنها الوحىُ يُطوَى بين أوراقِ
ما سُّر حُسِنك؟ ما جسمٌ يحيط بهِ ثوبٌ ليدفع عنه فَتْك أحداقى
جسمٌ من النور لو يوماً ظهرتَ به عُريانَ ما كان للأرواح من واقى

إن الطبيعة فى الرؤية الرومانسية قد تعرت عن جمالها ولبست ثوباً كئيباً من المشاعر الحزينة التى تملأ نفس الشاعر، وبالتالى فإن الطبيعة حين لجأ إليها الشاعر طالباً الملاذ والحماية من هجر (الصحاب) لم تعطه ما أراد ولم تخفف قليلاً مما يحمل من عذاب، بل إنها زادت من شعوره بالاغتراب فيقول(١):

سمعتُ حَمَاماتٍ يَنُحْن فَعَزَّنى حَنينى إلى صحبٍ بمصرَ أشحَّاء
هُمُ أسلَمُونى لا عفا الحبُّ عنهمُ إلى ليلةٍ من غَمرَة الحُزنِ لَيْلاء
أنادمُهُم بالوهْم والقلبُ عارفٌ بأنى لَدَى كأس من الدَّمْع حمراء
شربتُ الأسى صِرفاً فثارتْ مدامعى تُذِيعُ حديثى فى الغرام وأنبائى
أنا الطائر المجروح يرميه بُؤْسُهُ لشقوته ما بين نار ورَمْضاء
فإن عشْتُ آذتْنى جُرُوحى وإن أمُت شَوَتْنىَ فى الأرواح نيرانُ بأسائى

ولذا فإن الشاعر يلجأ فى قصيدته (بين القديم والحديث) عن ليالى (سنتريس) إلى طبيعة جديدة يصنعها خياله هى الطبيعة التى لما يلوثها البشر بعد يقول(٢):

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٢٨.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٧٠.

يا موقدَ النار فى صدرى مؤجَّجةً ولا هيـاً بـين أزهـار وأفنـان
كيف ارتضيت عداك اللومُ ما صنعت يـد الفـراق بقلـب المـدنف العـانى
ارجـع إلىَّ فمـا نفسـى بصـابرةٍ علـى نـواك ومـا طرفـى بوسـنان

إن الشاعر لا يستسلم لليأس بل يجعل للأمل فرصة فى حياته فمازال الواقع يملك فى داخله القدرة على التغيير إلى الأجمل، فإذا كانت نفس الشاعر ممتلئة بالرضا انعكس هذا الرضا على الطبيعة فبدت مزدانة بالبهجة وهو ما نراه فى قوله(١):

وصَلَتُ إلىْ الثغر الجميل يَحثُّنى إليـه غـرامٌ فـى الفـؤاد دخيـلُ
وصـلتُ إليـه والغزالـةُ روحهـا إلى البحـر ترنـو صـبوةً وتميـلُ
ضـفائرها قبـل الغـروب أشـعَّة بـوارق بالسـحر الأصـيل تَصُـول
وقفـتُ أُراعيهـا وللمـوج صَـرخةٌ علـى جنبـات الشـاطئين تجـول
أفـى كـل شـئٍ يخلـق الله فتنـةً أقـول لهـا مـا أشـتهى وتقـول
إذا صـحَّ إيمـان المحـب بربـه فكـل قبـيحٍ فـى الوجـود جميـل

لقد امتلأت الطبيعة بكل مظاهر البهجة حين امتلأت نفس الشاعر بالرضا وكان ثغر الإسكندرية مثيراً لكل مظاهر الجمال التى تحتشد بها الطبيعة.

ونرى الطبيعة تحرك فى الشاعر ذكريات جميلة حيث كان الشباب والتفتح للحياة والتفاؤل بالقادم فى المستقبل ونلمح هذا كله فى ديوانه **(ألحان الخلود)**.

ويجسم "**زكى مبارك**" هذا الموقف فى قصيدة **(الثورة الجديدة)** وهى تصور عاطفة صادقة من عواطف الوجد المشبوب يقول(٢):

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٣١٩.
(٢) الديوان نفسه، ص ٣٢٨، ٣٢٩.

هـل يَسـأل الحـبُّ عنـى وأنتمـو قـد صـددتم
هـل تعـرف السـر منـى وأنتمـو قـد جهلـتم
.....
دارُ الغـرام ترينـى مـن لـوعتى مـا جحـدتم
أزورهـا بخيـالى وخـاطرى إن بَخِلـتم
.....
الـدار تشـكو جفانـا ومصـدرُ الشّـكو أنـتم
إنـى أرهـا وأدرى مـن سـرها مـا طـويتم
أحجارُهـا عاتبـاتٌ علـى الـذى قـد صـنعتم
أطيارهـا شـادياتٌ بغـير مـا قـد شـدوتم

ويأتى "**زكى مبارك**" بصور الحاضر التى يثيرها البحر فى نفسه فيبعثها من جديد فى قوله[1]:

أيـن أيـامى برمـل اسـكندرية والهـوى يَمْـرَح والـروح فتيَّـة
أيـن أيـامى ونـار الوطنيـة تجعـل القلـب إلى الـوادى هديـة
.....
أن هـذا البحـرَ رَوحٌ مـن نعـيمْ إن هـذا البحـر لَفْـحٌ مـن جحـيمْ
فـى ثنايـاه حفيـفٌ مـن نسـيم وأعاصـيرُ مـن الكَـرْبِ المقـيمْ
.....
أنـا يـا بحـر بـأهوائى غريـقْ أشـرب الأهـواء ريقـاً بعـد رِيـقْ
بـالهوى قـل لى متـى يومـاً أفيـق مـن غـرامٍ هـو كـأسٌ مـن رحيـقْ
جِنَيَّـة البحـر عـودى وبـاللَّمى العَـذْب جـودى
لا تنفـرى مـن صـعود الشـطّ خائفـةً مـن شـاعر فاتـكٍ بالحسـن هَيْمـان

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١٩٢، ١٩٣.

بَلقيسُ أنت وعرش المجد تحت يدى ورثتــه أنــا عــن جــدى ســليمان

لقد أثار البحر ماضى الشاعر بكل ما يحمله من ذكريات جميلة وحوادث مشجية فأحيا قلبه الذى حطمته قسوة الأيام.

ونلاحظ فى هذه الأبيات هذا التجاوب المتبادل بين الشاعر والطبيعة وقد اتحدت فى نفسه الحقيقة بالخيال واختلطت مشاعره بالأشياء فتنطق بلسانه وينطق بلسانها.

ونلمح هذا الامتزاج بصورة صادقة وقوية فى قصيدة (**إلى القمر**)[1]:

آه مــن نــورك آهــاً ثــم آه
يا جميلاً هو فى الحسن إله
لم ينل قلبى من الحب مناهْ
فضــح العشــاق ضــوء القمــر

* * *

يــا رقيبــاً هــو أحلــى الرقبــاءْ
بضـــــياءٍ وصـــــفاءٍ وســـــناءْ
أنــت يــا بــدرُ سمــيرُ الشــعراءْ
وسمــير الشــعر مثــواه الخلــودْ
.....
يــا إمــامى وغريمــى فــى الســهرْ
حــارت الــروح ومــا حــار القــدَرْ
إن هــذا الحــب بالنــار أمَــرْ
ليتــه يصــبر يومــاً يــا قمــرْ

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٣٨، ٢٣٩.

وهذا التجاوب من الطبيعة مع الحالة النفسية للشاعر يطلعنا على مكانتها فى شعره، فالطبيعة عند "**زكى مبارك**" حياة متدفقة وجمال مقدس يبعث النشوة والإيمان ويستحق التقديس لذلك ركن إليها وشغف بها شغفاً كبيراً انتشر عبر أشعاره ولم يقتصر على قصائد معينة خاصة بالطبيعة ووصفها، كما امتاز وصفه بأنه كان يقصد ذاته فيصف شعوره ويربطه بمظاهر الحياة من حوله ولذلك نجده يختار ما يتجاوب وعواطفه.

رابعاً: الشعر الدينى:

يقول "عبد الرحمن شكرى"(١)فى ديوان (زهر الربيع): "إن وظيفة الشاعر هى الإبانة عن الصلات التى تربط أعضاء الوجود ومظاهره وإن الشعر يرجع إلى طبيعة التأليف بين الحقائق، ومن أجل ذلك ينبغى أن يكون الشاعر بعيد النظر غير آخذ رواء المظاهر مأخذه نور الحق، فيميز بين معانى الحياة التى تعرفها العامة.

ومعنى الحياة التى يوحى إليه بها الأبد، وكل شاعر عبقرى خليق بأن يدعى متنبأ، أليس هو الذى يرى مجاهل الأبد بعين الصقر، فيكشف عنها غطاء الظلام، ويرينا من الأسرار الجليلة ما يهابها الناس؟".

ومن هذا يتضح موقف الشاعر الرومانسى من الوجود الذى هو أحد أعضائه وأصبحت له رؤية فكرية، جعلته طرفاً أساسياً فى العلاقة مع الكون بأسره فلم يصبح متفرجاً على الحياة، بل أصبح جزءاً فاعلاً فى حركتها، يقوم بدور المكتشف لأبعادَ هذه العلاقة.

وفى تصوير هذا الموقف يقول "**زكى مبارك**" فى قصيدة (**ثورة على الوجود**)(٢):

(١) ديوان عبد الرحمن شكرى، طبعة منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٦١م، ج٤، ص ٢٨٧.
(٢) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٧١، ٢٧٢.

حـار النبيـون فـى تطهـير فطـرتهمْ فمـا عسـى نفـع أمثـالى وأشـعارى
ربـاه آمنـت لكنـى علـى خطـرٍ يغتالنى الشك فى جهرى وإسرارى
سـوَّيتَ فـى النـاس أخلاطاً مبعثـرةً تَشوكُ عشاق صنع المبدع البارى
أرى وجوهـاً بصـدق الـودّ واعـدةً ولا أرى ظـل قلـبٍ غـيرِ خَتَّـار
كـم مـن عشـيرٍ أواسـيهِ وأنصـرهُ يرعـى حمـايَ بقلـب جاحـدٍ ضـارِ
غفرانَـك الله هـدْى نفثـة غلبـتْ ألقـى بهـا الشـعر لم تسـبْق بإصـرار

ويقول من قصيدة **(الصوفى بالأسكندرية)**[1]:

أفـى كـل شـئٍ يخلـق الله فتنـةً أقـول لهـا مـا أشـتهى وتقـول
إذا صـحَّ إيمـان المحـب بربـه فكـل قبيحٍ فـى الوجـود جميـل

وهنـا نلمـح دور الخيـال الفذ فـى التعبيـر عـن هـذا الموقـف جماليـاً، فالخيال هو الذى يمكن الشاعر من الإبداع.

وقـد أدرك الرومانسـيون أن للـدين وجـوداً مـؤثراً فـى الواقـع الـذى يتعاملون معه وفى واقعهم النفسى ذاته.

ومن هنا كان للرؤية الدينية فى شعر "**زكى مبارك**" نفس الدرجة من الوجود نراها ممتزجة بالشعر الذى يعبر فيه عن شتى مواقفه وبخاصة فى الموقـف العـاطفى الـذى أضـفى عليـه هالـة مـن التقـديس ويقـول مناجيـاً محبوبته[2]:

لـك الأغاريـد مـن شـعرى ونشـوته لك الأفاويق من روحى ومن جسدى
إذا ضـممتك ثـار الكـون أجمعـه ثـور الريـاح بقلـب البلبـل الغَـرِد
أخـاف مـن جمـرةٍ فـى الخـد تفتننـى إنـى أعـوذ بهـذا الواحـد الصـمد

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٣١٩.
(٢) الديوان نفسه، ص ٣٢٦.

وهنا امتزجت لغة "**زكى مبارك**" امتزاجاً واضحاً مع عاطفتى الدين والحب وتعد قصيدة **(الناس والزمان)** خير برهان على ذلك يقول فيها(١):

إلى قلبى تعالى لا تهابى فإنى بالشدائد قد أنست
ستلقَيْن الغرائبَ فى فؤادٍ أقمتُ بناءه فيما أقمت
وسوف ترَين آلامًا كراماً بهنَّ على زمانى قد كُرمتُ
.....
بنانى الله وثاباً طموحًا أروم من المعالى ما اشتهيت
أخافُ الكفرَ أخشاه إذا ما بغير جلاله يوماً وثقتُ

واستمد الشاعر صوره وألفاظه من الحياة الدينية ومشاعرها الروحية فى قصيدة **(الغرام الجديد)** يقول(٢):

رباهً ما الصادحاتُ من ضاحكات الأمانى
رباهُ ما النائحات شاديات المثانى

* * *

رباه ما الشارقاتْ من النجوم الثواقبْ
رباه ما الغارباتْ من الظنون الكواذبْ

* * *

رباه كيف ترانى وكيف حالىَ عندكْ؟
هل كنت فى كل حالٍ إلا فتاك وعبدكْ؟

* * *

(١) الديوان نفسه، ص ٣٣٢، ٣٣٣.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٤٦، ٢٤٧.

الكونُ، ما الكون؟ قل لى يا مُبدعَ الكائناتْ
هل كان إلا مَراحاً لأنفس حائراتْ؟

وهنا نلمح ثورة وجدانية تعتاد من يفيق من غفوة القلب حين يتنسم أرواح الأزاهير.

على أن الشعر الدينى يأخذ صورة أكثر عمقاً حين يوظف "**زكى مبارك**" الشاعر الرومانسى بعض الأحداث الدينية فى قصائده ويبلغ التعبير عن هذا التوظيف أوجه عنده فى مطولة بعنوان **(توديع مكة المكرمة)**(١) يقول الشاعر: إنه عثر عليها ضمن مجموعة حملها المسيو "كازنوافا" المستشرق الفرنسى من باريس وهى منسوبة إلى الرسول ويدعى راويها أن الرسول نظمها وهو فى طريقه من مكة إلى يثرب.

يقول الله تعالى عن رسوله: ﴿**وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ**﴾(٢)، ونحن أمام قصيدة أثرية قالها شاعر قديم على لسان الرسول وفيها يحدثنا "**زكى مبارك**" أن الرسول توجع لفراق مكة فلم يخرج إلا وهو باك محزون يقول:

هجرت بلاداً لست أعرف ما اسمُها ولا رسمها، إنى إلى الله أرجعُ
بلادٌ ترى أن الضلال هداية وللإفك إفك الشر تُصغى وتخضعُ
إذا قالت "العُزَّى" أجابوا نداءها وكاهنهم من خشيةٍ يتركعُ
أمكةُ دارى؟ كيف هاتيك دارةٌ يقول بها الشِّرك الأثيم فتخنعُ
بلادٌ تخون الله فى كبريائه وفى الطين طين الشرك تجرى وترتعُ

* * *

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١٤٠: ١٤٦.
(٢) سورة يس/ أية ٦٩.

غريبٌ بدار الشّرك لا الأهلُ أهلُه وإن كَرُمتْ فيها جدودٌ وأعمامُ
أبى الله أنا أحيا بدارٍ يذلها علىعزها فى حومة العدل أصنامُ

وهذه عاطفة طبيعية، فمن المؤكد أن الرسول ﷺ حزن من ذلك الفراق وفى القصيدة التفاتة جديدة وهى إصرار جماعة من أصحابه للبقاء بمكة، لا هرباً من الهجرة ولكن حباً فى البقاء لمصاولة المشركين يقول:

أهاجر وحدى، آهُ كيف أهاجر وأترك أصحابى وفيهم قساورُ
سأتركهم عمداً إلى الله وحده وما أنا فى هذا بعهدىَ غادرُ
هو الله إن الله يحفظ عهدَهُ ويحرس فى عهدى الهدى من يصابر

وهنا عرض الرسول على أصحابه أن يهاجروا معه، فقال بعضهم: تهاجر أنت ونبقى نحن، فلابد لمكة وهى قلب الإسلام من حراس.

ثم يحدثنا الشاعر أن الطريق إلى يثرب كان محفوفاً بالمتاعب، وأن المساء كانت تغضب من وقت إلى وقت غضباً تصوره الغيوم والأمطار والرعود يقول:

بروقٌ وأمطارٌ فيها هولَ ما أرى لقد جُنَّ هذا الكون من رؤيتى وحدى
أنيرانُ قلبى تجعل الكون دمعةً تحول بها عيناىَ سهداً إلى سهد
ثعابين أراها فماذا تريدهُ وأشبال أسادٍ فررن من المهد
فيا رب أنت الله جل ثناؤه وأنت مجير الشوك من نفحة الورد
أجرْ هذه الدنيا بلطفكَ رحمةً بقوم سيلقون المكاره من بعدى

ولكن الرسول يصبر على تلك المتابع صبر الأنبياء، ثم تتموج المعنى تموجاً ينتقل من صورة إلى صور، ومن لون إلى ألوان إلى أن يدخل الرسول يثرب، بعد أوقات طوال، ذلك بأن الرسول كان يتمكث فى طريقه ليدعو من يلقاهم إلى الإسلام وذلك يطيل الطريق يقول:

أقول إنى هجرت الدار معتصماً بالصبر والصبرُ للأحزان ترياقُ
هجرتها وفؤادى من لواعجهِ فى ثورة الحزن بالأحزان دفّاق

محمـــــــــدُ أنـــــــــت؟
أنـــــا النبـــــىُّ محمـــــدْ

والشاعر يحدثنا أن أهل يثرب وهم الأنصار كانوا يلاحظون أن حنين الرسول إلى مكة حنين موصول، وأنهم عاتبوه على ذلك الحنين فكان جوابه أن مكة قطعة من الوجود فطرها فاطر الوجود، وأنه لحب الله يحب جميع ما فى الوجود يقول:

ما بال مكة تستهويك يا رجلاً لـــه إلى الله أنصـــار وخِـــلاَّن
بمكةَ كان الوحىُ فلتعذروا فتىً له عند هاتيك المناسك "قرآن"

مـــــــــاذا تقـــــــــولْ؟
مـــــــــاذا تقـــــــــول؟

أكاد أجهل أنى هائمٌ أبداً بواحة ذبحها للقلب قربانُ
معاهد آبائى ومهد صبابتى ومشرع حب كان لى فيه أخذان
إذا قلت ذِى الدار قالت عواطف بأنى غريب فى المنازل حيرانُ
يا دار يثربَ قد طال المقام بنا ولى بمكة أحباب وجيران

أيامُنـــــــا أعـــــــوامْ
أحلامُنـــــــا أوهـــــــامْ

وهنا يقول "**زكى مبارك**" إن فى النسخة الخطية كثير من التحريف فبذل جهداً خطيراً فى تصحيح ذلك التحريف.

ولم يستطع التعرف على ذلك الشاعر قائل القصيدة الأصلى وأغلب الظن أنه من شعراء الصدر الأول، ومهما يكن من شئ فإن تلك القصيدة تحفة فنية وإن كذب الشاعر فى نسبتها إلى الرسول ﷺ.

وفى هذه المطولة يتضح إدراك الشاعر لمعنى الهجرة والنبوة والعودة إلى مكة وهو يعلم البشرية بأجمعها مبادئ وتعاليم الإسلام الحنيف.

إن الشاعر وهو فى رحلته الإيمانية وفى استعادة ذكرى هجرة أشرف المرسلين لا ينفصل عن واقعه فقد وقف يتأمل منظر نزول حبات البرد بكثرة هائلة فصيرت الشوارع والميادين صوراً من الثلوج التى أحالها الخوف من الرعد إلى حبوب يقول(١):

أعوذ بالله من يومٍ تصول به ... وقتَ الظهيرة أمطارٌ وأرعاد
إذا طربنا إليه فى مواكبه ... فحظُّنا منه إنذارٌ وإيعاد
كلٌّ إلى إلفه يهفو بأصرة ... لا البرق ينقلها يوماً ولا (الراد)
مزِلاتٌ كأيام الزمان بنا ... إن الزمان بأهل الصدق مرصاد
لو كان فى الدهر مشتاقٌ له ثقةٌ ... بمن يحب لكانوا بالهوى جادوا
ألاذَهم بتجنيه فأهلكهم ... عيبٌ عليهم فظيع إن همو عادوا

وهذه الرؤية امتداد للرؤية الدينية السابقة ولكنه لا يعيش حقيقة واقعة لأنه مضطر للبعد عن الواقع فى رومانسية عذبة وقد فطر القلب على الحب فيقول: كيف النجاة؟(٢).

رباه صُغْت فؤادى ... من الأسى والحنينِ
ولم تشأ لضلوعى ... غير الجوَى والشجون

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٢١٧، ٢١٨.
(٢) الديوان نفسه، ص ٧٤.

فكيــف تصــفو حيــاتى؟ مـــن الهـــوَى والفتـــونِ
أم كيـف تُرجَــى نجــاتى؟ مـــن ســاجِياتِ الجفـــونِ

ولكن الشاعر يستطيع أن يهدىء من رمانسيته الذى يعمق انطلاقها بداخله فى قصيدة (**دار الوجد والمجد**) وذلك حين يستمع البحر إلى مناجاته المتوسلة(١).

نشيدى فى التصوف كان لحناً نقلتُ صداه عن قَصف العُباب
سُوايَ يرى الوجود إن اجتلاهُ سـطوراً ثاوِيـاتٍ فـى كتـاب
ويجْلـوهُ لوِجْـدَانى ورُوحِـى إذا مـا شـئتُ إظـلالَ السحاب
وهـل كانـت حيـاة النـاس إلا قلائـد صـاغها رَبُّ الرَّبـاب
عشقتُ البحرَ والصحراءَ عشقاً بـه طـال انـدفاعى وانجـذابى

وهكذا نرى الرؤية الدينية فى شعر "**زكى مبارك**" ظاهرة فى معظم القصائد الرومانسية وتجلى ذلك فى قوله: "سأذكر حين أموت أننى كنت أكرم خلق الله فى رعاية الجمال وسأذكر أن الله اصطفانى لهذه الرسالة الروحية حتى صح لى أن أقول:

وكم حبيب براح الريق أسكرنى وكم جميل بورد الخد حيانى

سأذكر يوم أموت أننى كنت شاعر الحب والجمال وأننى عبدت الله أصدق العبادة، فقد أثنيت مخلصاً على ما صنع وما أبدع حتى جعل الدنيا غرائب وعجائب من الصنع البديع"(٢).

(١) الديوان نفسه، ص ٦٧.
(٢) زكى مبارك ونقد الشعر، د. كريمة زكى مبارك، ص ٢٢.

خامساً: الشعر الاجتماعى:

لقد كان الواقع الاجتماعى الذى يصوره الشاعر فى رومانسيته مطحوناً حتى رحى أمراضه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكانت قوته الوحيدة التى يمكنها أن ترجع عنه ضغط هذه الرحى فى يد الحكومة التى يمثلها الملك الذى كان يتجلى كل عام فى (خطبة العرش) بسيل من الوعود بما يحققه للشعب فى العام المقبل ولم يكن أمام الأغلبية المطحونة سوى الانتظار وأصبح الأمر لحل المشاكل الاجتماعية فى حاجة إلى حركة قوية لا يقدر عليها إلا أولو الصفات الخاصة مما حدا بالشعراء الرومانسيين إلى الهروب والعزلة عن هذا الواقع بدون تصريح يقول "**زكى مبارك**" من قصيدة **(أنا الغريب)**(١):

كنتُ فى باريسَ أشكو وحدتى كنت فى بغدادَ أشكو زمنى
وأنا اليومَ أعانى غُربةً مُرَةً أشقى بها فى وطنى

* * *

أغريبٌ أنا والسيفُ إذا طلَبَ النْجدةَ نادَى قلمى؟
أغريب أنا والوحى إذا غابت الأرواح ناجَى ألمى؟

* * *

فى رياض المجد والوجد أصول باليراع العَضْب والشعر الجميلْ
كلُّ ما قلتُ هو الرأى الأصيل ما لمن رامَ سِباقى من سبيلْ

* * *

قلمٌ ماضٍ وشعرٌ يَعزفُ وفؤادٌ بالمعانى ينطفُ
أنا إن شئتُ ضميرٌ حاكمٌ أنا إن رُمْتُ حُسامٌ مُرْهَفٌ

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٣١٥، ٣١٦.

وكان الرومانسيون رغم شعورهم بالاغتراب وإحساسهم بالعزلة شديدى التعاطف مع الجانب الضعيف من الواقع الإنسانى لأنهم يفضلون العيش فى خطر، ومن هنا أخذوا يبحثون عن المغامرات بدلاً من السعى إلى الأمان وهذا ما رأيناه فى شعر "**زكى مبارك**".

فقد ظهر تعاطفه الإنسانى بشكل شديد مع ضحايا المجتمع يقول(١):

يـا يتـامى مشـرَّدين أغيثـوا خائفـاً يحتمـى بطيـف الأمـان
يُتْمكم فى الجمال والحسن يُتمٌ هو يُتْم فى الروض روض المعانى
جَمـع اليُـتم بيننـا واليتـامى يتلاقـون فـى ظـلال الأمـانى
يُتْمكم لن يطـول فالـدهر يرمـى كـل يـومٍ بالرائعـات الحسـان
إنمـا اليُـتم يُـتم روح صـدوح مالـهُ فـى بـدائع الشـعر ثـانى

وتصل الشفقة بالضعفاء من ضحايا المجتمع إلى درجة البكاء عنده فيقول(٢):

يـا مُخْلفـاً ودمـوع القلـب تْتبعـه بـدافقات مـن الأشـجان حمـراءِ
كيف ارتضيتَ جزاك الحبُّ ما صنعت أهـوال خُلْفك فـى ضرى وإيـذائى

ويأتى شعر "**زكى مبارك**" متصلاً بالتجربة الاجتماعية لدرجة الاتحاد معها فقصيدة **(كذب المغتابون)** تعطى هذه الرؤية ويقول(٣):

تفنَّنـتْ فـى اغتيـابى عُصـبةٌ عَجـزتْ عـن دَرْك مـا نلتُـه بالعمـل والأدبِ
قـالوا غَـوِىٌّ شـديدُ الفتـكِ مُنطلـقٌ إلى المـآثِم مُغـرىً بابنـة العِنَـبِ
إن صحَّ مـا زعمـوا والإفـكُ مـا زعمـوا فكيـف ألَّفـتُ مـا أبـدعتُ مـن كُتـبِ

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٣٢٤.
(٢) ديوان ألحان الخلود، ص ٣٢١.
(٣) الديوان نفسه، ص ٣١٧.

سبعون جزءاً كأزهار السماء بَدَتْ كالشُّهْب تنْقضُّ من بُعدٍ ومن كَثَب
فى كل قُطْر لها بُرجٌ تحُلّ به وتأسِرُ الخَلْق من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
خُصومُنا لَطَفَ الله اللطيف بهم قد أوغلوا فى سهُوب الخَرْص والكذب
تقوَّلوا وأطالوا فى تقوُّلهمْ والكَلْبُ يْنبح مذعوراً من الكلَبِ

وهنا يتحدث الشاعر عن التجربة بصيغة تبدو وكأنما يتحدث عن همومه الخاصة إزاء محنة مع المجتمع الذى يعايشه.

ويتتبع الشاعر المجتمع ليكشف عن جذوره التى أفرزت الظاهرة الاجتماعية التى رأى نفسه واحداً من ضحاياها يقول(١):

خطوب الدهر لم تَخْفِض جناحاُ بعَزمته القوية قد سَموْتُ
قضيتُ العمر ما أحدٌ رآنى على بابٍ لمخلوقٍ وقفت
ولا عِلمى أهنتُ ولا بيانى ولا بمدارج الأطماع سِرت
ستَمضِى محنةٌ وتجئ أخرى وليس لِمحنة الأحرار وقتُ
ويبقى خاطرى شهماً شجاعاً أصولُ به وأفتِك ما أردت

وقد يصدر "**زكى مبارك**" عن رؤية تقليدية للواقع الاجتماعى وقد أفرد فيها الحديث عن الأحداث الوطنية سياسية واجتماعية مثلما حدث فى قصيدة **(دمعة على رئيس الحزب الوطنى "محمد فريد")** يقول(٢):

سَلُوا برلين عمن حلَّ فيها يفتّت كْبدهُ المرضُ العنيدُ
مضى يستوهبُ الأيام عمراً تتمّ به المساعى والجهود
فلم يذهبْ بعلته طبيبٌ ولم يُكتبْ له عمرٌ جديدُ
وخرَّ على السرير وحبُّ مصرٍ على تبريح علته يزيدُ

(١) الديوان نفسه، ص ٣٣٢.
(٢) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٦٢، ٢٦٣.

فمـا ضـمن البقـاءَ لـه صـديقٌ ينـادى: لا عـدمتك يـا فريـد!

* * *

فيـا لَهفـى عليـك وأنـت كهـلٌ غريـــبٌ عـــن أحبتـــه بعيـــدُ
تمـــوت فـــلا تـــرى مثـــواك أمٌ ولا أخـــــــــتٌ ولا زوجٌ ودود
ولا يـــروى ثـــراك أخٌ شـــقيقٌ بدمعتـــهِ ولا طفـــلٌ وليـــدُ

وفى التمثال السجين يقول[1]:

يـا طيـفَ تمثـال الـزعيم الشـهيدْ أثَـرْتَ فـى الصـدر كـرام الشُّـجونْ
ولُحـتَ للـنفس مثـال الخلـودْ وإن تعامـتْ عـن سـناك العيـونْ
أطفـتَ بـالْقوم فمـا اسـتْقبلوكْ إلا بـذكرَى مـن وفـاءٍ هزيـلْ
فاعذر – سقاك العهد – من أنكروك لا يعـرف الجاحـدُ وجـه الجميـلْ
سُـجنتَ أزمانـاً وطـال العقـوقْ فـاغفر إذا أعيـا عليـك النصـيرْ
القـومُ أسـرى لـيس فـيهم طليـقْ أيرتجى المسجونُ غوث الأسير؟!

وهنا تمثل للشاعر تمثال "مصطفى كامل" وكأنه طيف خيال وقد كان الإنجليز يمانعون فى إخراجه فظل سجيناً بمدرسة "مصطفى كامل" أعواماً تزيد على الثلاثين ثم استطاعت الحكومة المصرية إخراجه فى العاشر من فبراير عام ١٩٣٣م بمناسبة مرور ربع قرن على وفاته وهو اليوم فى ميدان "مصطفى كامل" بشارع محمد فريد بالقاهرة.

وفى تنوع آخر نجد "**زكى مبارك**" يقترب برومانسية أكثر من الوطن محاولاً أن يكشف عن وجه الخداع ويخلع عنه قناع الزيف فيقول على شاطئ الأسكندرية[1]:

(١) الديوان نفسه، ص ١٨٤.

ما كان عهد تلاقينا سوى زمن مضرج بنجيع السيف والنار
رأيت شطك والأهواء تعصف بى عصف الإسار بليث الغابة الضارى
كان الحديد سياجاً استظلُّ به ظُهراً وكان نديمى عند أسحارى
إن أنسَ لا أنس والأيام ذاهبة أنى سُجِنتُ من الأحرار فى دارى
كان اصطخاب هدير الموج يؤنسنى كأنما هو من صحبى وسُمَّارى

ويسترسل قائلاً:

كانوا يخالون لا صحت مخايلهم أنى أقلّم عند السجن أظفارى
قد استتابوا رجالاً كان أشجعهم عند الكريهة مأموراً لأمَّار
تعهدوا أن يتوبوا من غوايتهم والتَّوبْ فى بعض معناه من العار
بقيتُ وحدى وأجنادٌ مدججة حوارسٌ هالهم عمدى وإصرارى
عنى عفَوْا لا عفتْ عنهم جرائمهم من حانثين بصدق الوعد غدَّار
ملائكٌ فى تساميهم إذا نطقوا وفعلهم مثل بغى القط بالفار

ثم يصعد برومانسيته درجة أعلى حين تتحول المحبوبة فى قصيدته فتصبح رمزاً للوطن وفى هذا الأداء الرمزى يقوم الشاعر "بتنقية الرمز من تخوم المادة وتفصيلاتها، لأنه يبدأ من الواقع، ولكنه لا يرسم الواقع بل يرده إلى الذات، وفيها تنهار معالم المادة وعلاقاتها الطبيعية لتقوم على أنقاضها علاقات جديدة مشروطة بالرؤية الذاتية للشاعر"(٢).

وتتجلى هذه الرمزية الاجتماعية عند شاعرنا فى بعض قصائده منها قصيدة **(على أطلال الجمال)** يقول فيها(٣):

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١٩٤.
(٢) الرمز والرمزية، د. محمد فتوح أحمد، ص ١٤٠.
(٣) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٥٤.

يا قَلبُ هِذى رسومُ الحسن موحشةً فـى مهمـه طـامس الأعـلام مجهـول
فانـدُبْ رجـاءك فـى دنيا وُعـدت بها أحالهـا الـدهرُ مَغنـىً غـير مـأهول
لاتلمـح العـينُ فـى شـتَّى جوانبـهِ إلا نـــوازىَ قلـــبٍ فيـــه مكبـــولِ
ولا ينـــال المعنَّـــى مـــن مشـــاهدهِ إلا عـــوادىَ حـــزنٍ جـــدِّ موصـــولِ

ونذكرمن قولـه فـى قصيدة **(من جحيم الظلم فـى القـاهرة إلـى سـعير الوجد فى بغداد)** عندما ألقاها فى نادى القلم العراقى[1]:

سيســأل قــومٌ مَــن زكــىٌّ مبــاركٌ وجســمىَ مــدفونٌ بصــحراءَ صــماء
فـإن سـألوا عنـى فـى مِصْرَ مَرقـدى وفـوق ثـرى بغـدادَ تمـرحُ أهـوائى
ســتذكرنى غِيــدٌ مــلاحٌ أوانــسٌ أطلـن بلائـى فـى الغـرام وإشـقائى
ســتَذكرنى مصــر ومــا كــان قلبُهــا سوى صخرةٍ فى جانب النيل ملْساء
إلى الله أشـكو لـؤم دهـرى وصَـرْفَهُ وعنــد الإلــه البَــرِّ أودِع حوبــائِى

إن هذا التصـوير الشـعرى لـيس وقفـاً علـى تجربـة جزئيـة أو ترجمـة لموقف عـام فحسب لأن كل هذه العناصـر الواقعيـة يستخدمها الشـاعر فـى تشكيل البعد الرمزى الذى يشحن التشكيل الشعرى.

إن "**زكـى مبـارك**" فـى قصـائده الاجتماعيـة يتكـئ علـى صـور الشـقاء الإنسانى فى الواقع.

ولقد اتخـذ موقفـاً صـلباً شـجاعاً فـى مـدة كانـت تمـوج بشـتى التيـارات الوافدة بالمذاهب الهدامة فضلاً عن تلك الدعوات الإقليمية الضيقة كالفرعونية والفينيقية وغيرهما.

فعارض كل ذلك وسبح ضد التيار وسجل آراءه وأفكاره فى مواجهتها وظهر وجه العربى المشرق الأصيل فزادت الحملة ضراوة عليه وحاولوا النيل

(١) الديوان نفسه، ص ٢٣٣.

منه وتحطيمه واستغلوا فى تحقيق هدفهم ذلك الاتجاه الرومانسى وذلك الطابع الذاتى عنده والحديث عن النفس واعترافاته الوجدانية ورغم ذلك لم تلن له قناة وخاض من أجل الدفاع عن آرائه وأفكاره الأصيلة المعارك والمسجلات الأدبية.

وفى ذلك يقول "**زكى مبارك**"(١): "تذكروا أن ناساً حلا لهم أن أذوق البؤس فنصرنى الله عليهم وكتب لى سعادة العيش وهم راغمون".

ومن هنا فإن رومانسية الشاعر الاجتماعية انطلقت من رؤى واعية للواقع الاجتماعى، وقد أكد بموقفه أنه من بين الطليعة الرومانسية التى حققت للشعر الحديث النضج الفنى.

المؤثرات الفنية فى رومانسية "زكى مبارك":

ساعدت الرؤية الجديدة لوظيفة الفن عند الشعراء الرومانسيين على شحذ خيالهم بدرجة عالية من التأمل فى ذواتهم لاستبطانها، وقد أدى هذا إلى ظهور سمات جديدة للشكل الفنى الذى هو مضمون هذه الخبرة.

ففى اللغة:

رأى الشاعر **زكى مبارك** أنها وسيلة التعبير، ولذا حاول أن يجعل لغته الشعرية قريبة من لغة الحياة كما حرص على أن يعدل كثيراً فى دلالة الكلمة فلم تعد تحتفظ كثيراً بمعناها المعجمى بل أخذت عنده دلالات جديدة تتلاءم وتجربته الشاعرية وأصبح له معجمه الشعرى الخاص بالغناء الذى

(١) زكى مبارك ونقد الشعر، كريمة زكى مبارك، ص ٢٣.

تتعانق فيه مفرداته مع عطاء تجربته فيقول فى قصيدة **(غناء ليلة الميلاد)** إننى صاحب (ألحان الخلود) ذلك أن تسمع صوتى أغنى فأقول[١]:

إن شعرى فيك من لَحْنِ الخلودْ
إنه المقبوسُ من جمر الصدودْ
إنه المعصور من زهر الخدود
وعصيرُ الخد من نار الحديد

* * *

غنَّيتُك الشعر من روحى فَطرتَ به مع الملائك فى يوم الثلاثاء
إنه يومٌ قريبٌ وقريبْ
يسمع القلب شَدَاه فيجيب
يعصف الحب بنا ثم يطيب
لحبيبٍ يتشهاه حبيبْ

وفى موسيقاه:

ربط الشعر بالغناء فى الموسيقى فقد بعد إلى حد ما عن الشكل العمودى للقصيدة، واستخدم فى بعض قصائده المقاطع المتعددة وكان لكل مقطع فى القصيدة قافيته الخاصة مثل الجمع بين أكثر من وزن وبعض اللوازم الموسيقية الأخرى ونذكر منها على سبيل المثال فى قصيدة **(إلى القمر)**[٢]:

هذه جلوتى
هذه جلوتُكْ

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٧٨.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٣٦.

هـــــــذه دولتـــــــى
هـــــــذه دولتُـــــــكْ
إنـــــى أنـــــا شـــــاعرْ
مـــن أنـــت يـــا ســـاحرْ

يا فاضحاً خلَّوَات العاشقين أفِقْ رفقاً بنفسك إنى سوف انتقمُ

.....

حـدَّثونى أنـك البـدر التمـامْ
المجير الناسَ من هول الظلامْ
كـذبوا فيمـا حكَـوه يـا غـلامْ
يـا كـثير الإفـك باسـم القمـرِ

وقد تحرر من مراعاة ما يطلق فى علم العروض: الإيطاء فى بعض قصائده الرومانسية، فاللفظة تقبل بكل ترحيب حين يوجبها المعنى وفى ذلك يقول(١):

شـربتُ دمعـى فـلا كـأسَّ ولا سـاقى
مضـى نـديمى وخلاَّنـى لأشـواقى
يا ساقىَ الراح هات الدمعَ يا ساقى
دمعى هـو الراح فاسقينه يـا سـاقى
يا ساقىَ الدمع بعد الراح يا ساقى
دمعـى دمٌ فترفَّـق أيهـا السـاقى

وهنا عمد الشاعر إلى تكرار كلمة الساقى لأنها مطلوبة فى المعنى، وعلى هذا فإن القصيدة عنده تدور فى إطار فكرى واحد وهو ما نجده واضحاً

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١٧٧.

فى معظم قصائده وبصفة خاصة فى التراث الشعرى الذى قدمه فى الاتجاه الرومانسى.

أما بالنسبة للصورة الشعرية:

فقد ظهر تجديده فيها بشكل واضح فقد تضمنت اللغة والموسيقى ولم تعد ذات مصدر مادى أو حسى فقط وجاءت صوره من مصادر معنوية متنوعة فكانت لها سماتها المتميزة التى تتوافق مع رؤيته الفنية الخاصة.

ويحكى ذلك بوضوح فى قصيدة **(طغيان دجلة وطغيان النيل)** عندما رأى الشاعر **زكى مبارك** سفينة غريقة عجزت عن مقاومة التيار فى نهر النيل فأثار هذا المنظر ما غفا فى صدره من روح الشاعرية فيقول(١):

يغنّى "الراد" فى مُسْىٍ وصُبْحٍ غناءٌ ذاك أم هذا نعيب
وصام الناس من جوع وصاموا صيام الذئب تحبسه اللصوب

.....

تعالى النيل من ملك رحيم غدا وشعاره الملك الغضوب
أقمتُ بأرض مصرَ أروض قلبى على عيش هو الروض الجديب
أعيش بأرض مصر، لأن دارى بها، يا رب ما هَذى الكروب
أفض يا نيل أغرقهم جميعاً فما لى فى ربو عهمو حبيب
وثبتُ عليهمو بالشعر، إنى إذا ما شئت يطربنى الوثوب

وفى القصيدة ألفاظ غريبة وهى أصيلة فكلمة مسى بضم الميم وسكون السين كلمة فصيحة وهى على وزن صبح كما أن كلمة مساء على وزن كلمة صباح.

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ١١٠.

وهذه القصيدة نوع من التجاوب الروحانى بينه وبين مظهر من مظاهر الطبيعة (النيل).

وقد تحول مبحث الصورة عند الشعراء الوجدانيين إلى اتجاه جديد فلم تعد العلاقات الجزئية البسيطة تستوقف النقاد وذوى الخبرة بدور الصورة الفنية، بل أصبحت الصورة المركبة وما تحمل من دلالات هى التى تعنيهم وهى بالضرورة تتكون من تآزر العلاقات السياسية فى إبداع الصورة الشعرية.

والصورة فى الشعر هى (الشكل الفنى) الذى تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر فى سياق بيانى خاص ليعبر عن جانب من جوانب التجربة الشعرية الكاملة فى القصيدة، والألفاظ والعبارات هما مادة الشاعر الأولى التى يصوغ منها ذلك الشكل الفنأو يرسم بها صوره الشعرية(١)، والعوامل التى تكونها من تشبيه وأنواعه والاستعارة وأنواعها والمجاز وغير ذلك.

والشعر العربى مهما أوغل فى التجديد فإنه يظل مرتبطاً على نحو ما ببعض المظاهر الفنية فى تراث الشعر العربى القديم، فالماضى الشعرى لا يمكن فصله عن ذات الشاعر ومخليته وثقافته والموروث الأدبى القديم لا زال يرافق الشاعر المجدد.

ولقد تحقق للشعر الرومانسى فى مراحل التجديد وضع متميز لكن سمات الشعر القديم ظلت واضحة فى نتاج الشعراء الرومانسيين كما يتضح فى رأى "**زكى مبارك**" إذ يقول: إذا كان موضوع القول متصلاً بالمشاعر والعواطف والقلوب، كان الشعر هو اللغة القادرة على التأثير والابتداع، ذلك

(١) الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر، د. عبد القادر القط، ص ٣٩١.

لأن الشعر فى صميمه ينفر من النفوس المعقدة ويأنس بالنفوس الصافية التى تسطير عليها القوة أو الوداعة وتغلب على أصحابها الثورة أو السكون ولا يفهمون من العالم إلا جوانبه الأخاذة التى تصرخ بالعظمة البالغة أو ترمى بالقلب فى سعير الحب وفتنة الجمال"(١).

ويرى "**زكى مبارك**" أن مطلع القصيدة لا لأول البيت بل هو أول صورة شعرية فى القصيدة، وأن فضل الصور الشعرية إنما هو تمكين المعنى فى النفس، لأن غاية الكلام البليغ من الشعر إنما هو التأثير، والصورة الشعرية لما فيها من تحليل المعنى وتعليله كافية فى تحقيق غاية البيان"(٢).

فالشاعر الرومانسى يضيف روافده الجديدة وقيمه الفنية إلى الموروث الأدبى القديم وإحدى هذه القيم الفنية هى الصورة الشعرية.

فالعودة إلى القيم الفنية الشعرية الموروثة تعد إحياء لكل ما أثر عن الماضى من معطيات فنية إيجابية وهذا يعتبر تطويراً لفن الشعر وتعميقاً لرؤية الشاعر وقدرته على الاستمرار والعطاء وإضفاء ثوب جديد على هذا الماضى ليجعله صالحاً للتعبير عما يعانيه من إحساسات ومن هنا صار الموروث الأدبى جزءاً مؤثراً فى عملية إبداع الصورة الشعرية الجديدة.

وقد ترددت صور الصحراء والإبل والظباء وغيرها فى الشعر الجاهلى والأموى والعباسى بصوره مختلفة وكانت مصدر كثير من التشبيهات والاستعارات والمجازات فى شعرهم(٣). وقد وجدنا آثار هذه الصور القديمة أو الموروثة فى الشعر الحديث وقد أكسبها الشاعر أبعاداً موضوعية جديدة ووظفها لخدمة عمله الشعرى يقول فى قصيدة **(صريع المرآة)**(٤):

(١) النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى، زكى مبارك، ط٢، ص ٢٨.
(٢) الموازنة بين الشعراء، ط٢، ص ٧٢: ١١٠.
(٣) زكى مبارك شاعراً، د. العربى حسن درويش، ص ٢٦٧.
(٤) ديوان ألحان الخلود، ص ٣١٨، ٣١٩.

مَليحٌ لـه المـرآة أختٌ حبيبـةٌ يقـول لهـا مـا يَشـتهى وتقـولُ
أسـاريره فيهـا أسـارير شـادن لـه فـى الظباء النـافرات أصـولُ
رأى وجهـه فيهـا جمـيلاً ورائعـاً فأمسى وفى الأحشاء منه غليلُ
فأصـبحت المـرآة شـهوة روحـهِ يميـلُ عليهـا حانيـاً فتميـل
تقـول لـه المـرآة إنـك سـاحرٌ وإنـك بـالروح الجميـل جميـل
عيـونُ كمـا شاء الفتـون فواتـك وخـدٌك كمـا رام الغـرام أسـيل
.....
فقبَّلـتُ ثغريـه وقبّلـت خـدَّه فأضـحى قتـيلاً والمحـب قتُـولُ
إذا قيـل مَـن هـذا القتيـل ذكرتـهُ بخـيرٍ، وبعـض القـاتلين خَتُـولُ

فـى هـذه الصـورة يجعـل الشـاعر المحبوبـة هـى النبـع لهـذا الجمـال السحرى بما تحمل من سر مشحون يرى فيه الشاعر حافزه للحياة.

وتمتد بـه هذه الصورة بوضوح فى جل شعره الرومانسى الذى استمد بعض صوره من الموروث الأدبى القديم.

ولنأخذ بعض النماذج للشـاعر "**زكـى مبـارك**" كأحد شـعراء الاتجـاه الرومانسى يقول(١):

لعمرى لقد أقصرت عن عبث الصبا ودعـت إيـامى بمنعطـف الحـزن

ونرى هنا صدى للأخيلة البدوية الموروثة كمنطق الحزن، وقوله فى قصيدة **(طفلة حسناء)**(٢):

يـا طفلـة الحسـناءِ والـدرة العَصْـماءِ
مـا طرفُـك النعسـانُ وخـدُّك الفتـان

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٤٣.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٦١.

إلا بقايـــــــــا الأمِّ ذات اللثـــات الحُـــمِّ

* * *

أشـــبهِتها فـــى الـــدَّلّ وجفنهـــا المعتـــل
ورِدفهـــا الثقيـــل وخصـــرها النحيـــل
فاستوْصـــفيها الحبـــا واســـتودعيها الربـــا
فقـــد تنـــاهى العمـــرُ ونـــال منهـــا الـــدهرُ

* * *

يـــا زهـــرةً فـــى العـــين ونَغْمـــة فـــى الأذن
وطفلـــةً فـــى المنظـــرْ وغـــادة فـــى المخَـــبرْ
لامســـكَّ الغـــرامُ فإنـــه ظـــلاَّمُ

وهنا نلحظ الألفاظ التى كونت الصورة الشعرية منها (اللثات الحم) ويستخدم الشاعر تراكيب بها مجاز وتشبيه واستعارة وقد أوردها جميعها من الموروث القديم ولكن بصياغة جديدة تخدم عمله الشعرى، وفى قصيدة (ابن الفارض الجديد) يقول فيها[1]:

يـا درة الحـب أيـن عهـدى هل صار عهدى هو الغريب
أبيت والطيف ضيف روحى والطيف من نشوتى طروب
أكـاد مـن صـبوتى إليكم لمـا لح الـدمع اسـتطيب
إن ثار وجـدى فناح طرفـى فالحـبُّ فـى مهـده كُـروب
هـل دارة الحـب لا تجيـب ولا علـى لـوعتى تثيـب
ولـيس يحلـو إلى حماهـا خفـقٌ مـن القلـب أو نحيـب

(١) ديوان ألحان الخلود؟، ص ٢٥١.

وهنا صورة تنزع نزوعاً واضحاً إلى أن تكون رمزاً شعرياً، وهذه الرموز يهدف الشاعر من خلالها إلى طرح أفكار لحالة معينة يعانيها ويحاول الشاعر أن يبثها كل مشاعره الوجدانية المخزونة ليجعلها تمتلك أكبر قدرة على الإيحاء، ويقول فى قصيدة **(عبادة الجمال)**[١]:

الشمسُ تُشرقُ من صِباكْ والبدرُ يطلعُ من سنَاكْ
والحسنُ فى عَليائِه وجلاله مَولَى صِباك
تِهْ واحتكمْ فيمن تشا ءَ فكل تيَّاه فِداك
وجمال خدك والجبي ـن وما نقشتَ على لمَاك
وعيونك النُّجل الحسا ن وما تلوح به يداكْ
للوعدُ منك وإن مطَلْـ ـتَ ألذُّ من جَدوَى سواك
.....
تخطو وتخطِرُ بالأصيـ ـل فلا النسيم ولا الأراك
وتميسُ حينا فى الضُّحى فتكون فتنةَ من يراك

وهكذا رأينا كيف أن الطبيعة بمظاهرها (الشمس، البدر، السنا، الضحى، النسيم، الأراك) كونت هذه الصور الرومانسية لدى "**زكى مبارك**".

فأخذ الألفاظ المجازية ووظفها توظيفاً جديداً فاعلاً وابتدع صوره من التجسيم والتشخيص والتركيب غير المألوف فى الشعر الموروث ولعل ذلك من أهم السمات المميزة لأسلوب "زكى مبارك".

فقد عمد الشاعر إلى إبداع صور تثير التأمل والتساؤل وتطلب من القارئ قدراً من المشاركة فى التأمل ويستطيع الشاعر أن يلقى ظلال مشاعره على الطبيعة فيلونها بها فلا هى تحزن ولا هى تبتهج وإنما ذلك من صنع إحساس الشاعر وخياله إذ يقول فى قصيدة **(غريب فى باريس)**[٢]:

(١) الديوان نفسه، ص ٢٥٢.
(٢) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٥٦.

جزاكم الحبّ، هل نسيتم ما كا من وردنا يطيبُ
أيامَ نسقَى الشَّمول صِرفاً ووجهها عابسٌ قَطوبُ
نُصارع الكأسَ لا نُبالى ما يكتم الدهر والغُيُوبُ
والزهر من حولنا شهيدٌ والنجم من فوقنا رقيب
غذاءُ أسماعنا غِناءٌ يكاد من لطفه يذوب
وزادُ أبصارنا جمالٌ تُباح فى حبه الذنوب

وقد أدت هذه الاستخدامات إلى إبداع علاقات جديدة بين الأشياء وإلى إيداع صور فنية مكتملة يمكن للقارئ التعرف عليها من الوهلة الأولى ونسبتها للرومانسية.

و"**زكى مبارك**" يستمد من الماضى ومن الحنين لهذا الماضى موروثاً أدبياً على طريقة الشعراء القدامى ولكن يمزج هذا الحنين بتجاربه النفسية والعاطفية ويوظفه على طريقة الشعراء الجدد، وشاعرنا من أكثر الشعراء حنيناً إلى الماضى على طريقة الشعراء القدامى وحنينهم إلى ماضيهم، فهو يأخذ الذكريات سواء كانت مؤلمة، أو مفرحة ويمزج بها تجاربه النفسية والعاطفية لتخرج لنا بثوب جديد وإطار يخدم عمله الشعرى بما تحمله أبياته من إيحاء، يقول من قصيدة **(على أطلال الجمال)**[1]:

يا مَن تشفَّعَ ماضيه لحاضرهِ بواضحٍ من جميل العذر مقبولِ
ليغفر الحبُّ ما أسلفتَ من صَلفٍ إلى محبٍ معنَّى القلبِ متبولِ
فقد نعمنا على ذكراك آونةً بسائغٍ من نَمير الوصل معسولِ
واليوم نعبدُ فى نجواك وادعةً أطلالَ حسن لمن يهواك مبذولِ

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٥٤.

وهنا يتحلى الماضى بكل ما فيه من ذكريات ممتعة أو مؤلمة، وهذه العودة إلى الماضى والحلم بالغد كلاهما يهرب إليهما الشاعر من واقعه، والشاعر الرومانسى بطبيعته هروبى يحب عوالم المجهول المغلفة بالضباب إذ يقول(١):

رجعتُ إلى رُؤى الماضى رجعتُ أسائل رسمها عما فقدتُ
رجعتُ أطوف يسبقنى فؤادى إلى ما قد عرفتُ وما جهلتُ
رجعتُ إليك بعد العتْب أبكى قواضب قسوتى فيما بكيتُ
إذا الدنيا تراءت فى صباها ورَنَّ لحلْيها فى الكون صوتُ
فأنت غناؤها فى صمت قلبى وأنت وفاؤها فيما جحدتُ
جمالك فى طهارته قتُولٌ وعَرْفُ الزهر إزهاقٌ وموتٌ

وهنا اتخذ "**زكى مبارك**" الماضى وصاغه بصورة جديدة واتخذ من الطبيعة مهرباً لروحه ومزج ماضيه بها ولم تكن لترد هذه الصورة فى ذهن الشاعر القديم.

على أن صور شاعرنا الشعرية ليست كلها من هذا النوع التراثى فقد نجد له فى الجانب المقابل صوراً مستحدثة تغلب عليها روح الحداثة ومن هذا النوع المستحدث نجد صوراً تتصل بالطبيعة تتمثل فى الحركة والماء والضوء واللون.

أما الصور الضوئية واللونية فى شعر "**زكى مبارك**" فهى كثيرة ومتنوعة فى ديوانه **(ألحان الخلود)**.

و"**زكى مبارك**" أحد شعراء الاتجاه الرومانسى يكثر فى شعره الضياء والألوان ويستخدمها بمقاييسها المعروفة لدى الرومانسيين وما ترمز إليه، يقول فى **(الصفح الجميل)**(٢):

(١) الديوان نفسه، ص ٢٩٢.
(٢) ديوان ألحان الخلود، ص ١٥٤.

يقـــاتلنى فـــيكم فـــؤادٌ معـــذب بـــه مـــن هـــواكم شـــقوةٌ وعنـــاء
إذا رضـته بالصـبر عـنكم تخايلـت لـــه مـــن ســـناكم أنجـــمٌ شـــفعاء
بكـل لَمـوح مـن صِـباكم بـوارقٌ فصـاحٌ كأقبـاس الصـباح وضـاء
إذا قلـت عـينٌ كـالعيون تمـردتْ ســـواحرُ منهـــا أمـــرهُنَّ قَضَـــاء
وإن قلـت خـدٌّ كالخـدود توهجـت بخـديك فـى ليـل الوصـال ذُكَـاء
وإن جال طرفى فى ثناياك أشرقت شـــوارقٌ يعلوهـــا ســـناً وبَهَـــاء

وهذه الصورة حسية رومانسية يجتمع فيها اللون والضوء، استخدم فيها الشاعر هذه الضياء والألوان فأصبحت الصورة مشعة بهذا البريق الضوئى الغامر.

وأقول عن الصورة الشعرية المستحدثة لدى الشاعر إلى جانب ما تحتويه من ظلال وأضواء إنها تحتوى على صورة صوتية موسيقية يعلو فيها النغم ويدل على ذلك هذه الأبيات من قصيدة **(أمواج وجدانية)** نذكر منها[1]:

سمعـــتُ صـــوتك والهتَّـــاف ينقلـــه إلى ســـرائر روحـــى قبـــل آذانـــى
صوتٌ كلحن المُنَى فى مهجة طمعت فـــى أن يعـــود إليهـــا روحهـــا العـــانى
أأنـــت تســـأل عمـــن أنـــت تحســـبنى نسـيت صـوتاً جفـانى منـذ أزمـانى
لـو كنتُ فـى عـالم الأمـوات ثـم شـدا بُغامـك العَـذْبُ فـى روحـى لأحيـانى

ويقول عندما تلقى خطاباً فجر ما لديه من رومانسية[2]:

وكيـف تكتـب والهتَّـاف يُسـمعنى غريـدَها وحجـابُ الليـل منصـدع
.....
خطابٌ كزهر الروض بل هو أنضرُ وروحٌ كروح السحر بل هو أسحر

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٨٠.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٠٨، ٢٠٩.

تلقيتــه والقلــب يخفــق والجــوى بأعمــاق روحـــى جمــرةٌ تتســعَّر
خطاب أتـى مـن بَعـد يـأس معـذَّب فأســكر روحــاً بالصــبابة تَســكر
أخطُّــك هــذا؟ أم تصــاوير؟ جنَّــة لها فى كتاب الحب والوحى أسطر

ونلاحظ أيضاً فى الصور المتقدمة النور وحسن توزيعها حيث يتمثل سنا النجم، وأقباس الصباح الوضاء، إشراق الشوارق، وقد أورد الشاعر هذا النموذج الفنى حيث استخدم الظلال والألوان والأضواء فى لوحة جميلة وفى صورة فنية رومانسية رائعة إذ يقول(١):

الحــب كالنــار مخلــوقٌ بحكمتــه وكــلٌ إبداعــه يُلقَــى بميــزان
المــاء والنــار أمــواجٌ مكهربــة وإن تشأ فهْمـا فـى الحـق نـاران
فقــد رأيــت شــرار النــار ملتهبــاً بمسـقط المـاء مـن خـزان أسـوان
سبحان من أبدع الدنيا وصورها سـفراً يؤلَّـفَ مـن مـاءٍ ونـيران
الخــد وهــو رقيــقٌ لونــه شــررٌ يزلـزل القلـب مـن ركـن لأركـان
والعــين إنســانها إن رمــت رؤيتــهُ أو هى من الصدق فى آفاق بهتان

وهنا اجتمعت الألوان والأضواء فى لوحة جميلة، وهذه اللوحة ما هى إلا من روائع "**زكى مبارك**" ومن يريد الاستزادة فى معرفة الألوان والأضواء فسيجد أمثلة كثيرة على ذلك فى ديوانه.

ويتضح لنا أن هذه الظلال التى تلقيها على شعره الأضواء والألوان تضفى على شعره طابعاً خاصاً يجعله محبباً إلينا وهو شاعر فنان يحسن توزيع الظلال والضياء على عالمه الشعرى الذى يرسمه وأرى أن ذلك يأتى عفوياً وناتجاً عن شعوره المرهف وإحساسه الرقيق وتجربته باعتباره شاعراً متأثرٍ بالرومانسية.

(١) الديوان نفسه، ص ٢٨١.

أما الصور المتحركة عند الشعراء الرومانسيين فتعود إلى إيمانهم بوجود الحياة والحركة رمزاً لهذه الحياة فى الأشياء ثم بالتالى قدرة الخيال على رصد هذه الحركة وإدراكها.

ومن الصور التى ترتبط بالحركة عند "**زكى مبارك**" صورة البحر أو النهر وغيرهما من صور الطبيعة وقد اتخذها معادلاً موضوعياً للنفس الإنسانية فى ثورتها وهدوئها والبحر بطبيعته هادم وبان فى آن واحد فقال فى قصيدة **(أنا الغريب)**(١):

جسمٌ من النور قد صِيغت محاسنُهُ كما تصاغ من الأمواج نيرانُ
غنَّى بشعرى فأشجانى وأطربنى وللظباء أغاريدٌ وألحانُ
أخفى عليه غرامى والهيام به شريعة الحب إسرارٌ وكتمان

ونلاحظ هنا صورة الشاعر الحائرة القلقة ونفسه التائهة يصورها من خلال ما أتى به من ألفاظ تبدو فيها الحركة (الأمواج، النيران) بالإضافة إلى ما تحتوى عليه الصورة من صوتية موسيقية فيها النغم ويدل على ذلك البيت الذى يقول:

غنَّى بشعرى فأشجانى وأطربنى وللظباء أغاريدٌ وألحانُ

ويقول فى صورة حائرة أخرى(٢):

قد سلونا معاً فماتت شجونٌ منك كانت رفيقةً لشجونى
هل سلونا معاً؟ فما بالُ روحى حائرُ الروح فى شعابِ الحنينِ

وفى صورة تبدو فيها الحركة مع الحيرة والقلق(٣):

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٣١٧.
(٢) ديوان ألحان الخلود، ص ٢٠٣.
(٣) الديوان نفسه، ص ٢٠٣.

بكيت بقلبى لا بدمعى من النوى وفى جوف قلبى جمرة تترقرق
تنامون عنى، كيف طاب نعاسكم أجيبوا، فإنى لا أكاد أصدَّق
تظنون أنى سوف أبكى ودادكم كما كنت أبكى والهوى البكر مُحْرِق

وهكذا ندرك الصورة المتحركة الناتجة عن رصد الجسم المتحرك لدى الشعراء الرومانسيين وقد استطاع "**زكى مبارك**" رصد ما حوله من حركات واستطاع بخياله النامى تحريك كل ما حوله فهو القائل[1]:

سأذكر ليل النَّحر والبدرُ يرتمى بأمواجه والنور كالزهر يَحْنَق
سأنحر قلبى فى غد، قد نحرتهُ فلم يبق فى قلبٌ يهيم فُيوثَق

وهنا يحرك الشاعر البدر فى ليله الساكن ويضفى عليه الصفات الإنسانية وقد تجلى فيه إبداع الجو الذى يريده جو الحزن والألم.

أما صورة الماء فهى كثيرة فى شعر "**زكى مبارك**" على نحو ما رأينا فى بعض الشواهد السابقة وعلى نحو ما نرى عندما يقول[2]:

عَرُوسَ البحر، حدَّثِنى شهودٌ بأن الشَّط صارَ إلى تباب
فلا غَيْداءُ تخطِرُ فى حِماهُ كرقص البدر من خَلْف السحاب
ولا صبٌّ خَتُورُ العهد يمشى على جَنباته مَشْىَ الحُباب
ولا صهْباءُ يْحسُوها بنوُه وقد قُبستْ من الذهب المذاب
إذا طافتْ بهم هاموا فخفُّوا لمَقبول المجانة والدِّعاب
وأمْسوْا والكواكب فى عُلاها لهم أسلابُ فتكٍ وانتهاب

(١) الديوان نفسه، ص ٢٠٢.
(٢) ديوان ألحان الخلود، ص ٦٦، ٦٧.

وهنا يقف الشاعر موقف المتألم خارج المنظر وكان فى وصفه للمنظر بمثابة المصور البارع الذى يلتقط المشاهد ومع وصفه هذه المناظر البديعية فهو يمتلك القدرة على تحويل الصورة من بصرية إلى سمعية وبالعكس، إذ هو يمتاز بخيال مبعد وتجل فى ألفاظه(١)، فى قصيدة (**بعد فراق الشاطئ**) يطلعنا على صورة مائية جميلة يقول فيها:

رعاه الحبُّ مِن شطّ جميلٍ خفيف الروح مصقولٍ أنيق
بهيِّ الرمل تحسبُه سُجُوفاً مُطرَّزةً بحبَّات العقيقِ
أطوفُ به فيغلبنى خُشوعى كأنى طُفتُ بالبيت العتيقِ

وهنا الصورة مكونة من الشط، والرمل، وحبات العقيق وكذلك نرى حركة الشط فى (خفيف الروح مصقول أنيق) وهى صورة أو لوحة مائية جميلة تغلب عليها الحركة والحياة.

أما فى قصيدة (**قلب تثيره العواصف**) يأتى لنا بصورة مائية غاية فى الروعة والإبداع إذ يقول(٢):

إذا ضجَّ موجُ البحر عانيت لوعةً مصلصلة النيران مرهونة الغبِّ
ألا كل شئٍ ها هنا بك عائذ عياذَ الثرى المكروب من محن اللَّوْب
تعال فهذا الشطُّ تزعجه النوى وقد كنتَ فى أرجائه نجمة القطب
تطلَّع موج البحر يستافُ زهرةً هى الأرَج المنشود من كَرْمة الحب
تعال نُغثُّهُ من جوَاه بليلةٍ تَصول بها الأهواءُ وثباً إلى وثَب
فما تسكُن الأمواجُ إن طاش حِلمها بغير الهوى الصوّال يزأرُ من قُرب

(١) الديوان نفسه، ص ٢٦٧.
(٢) الديوان نفسه، ص ٢٩٧.

وهنا صورة لنفسه القلقة الحائرة يصورها من خلال ضجيج الموج وانزعاج الشط وتطلع موج البحر إلى زهرة هى الأرج المنشود وذلك كله فى نيران اللوعة وثورة القلب وبأسلوب جزل يتفق مع ثورة الروح وثورة الوجدان، وهنا تتجلى الحركة وهى رمز الحياة كما أوضحت سلفاً وهى إيمان بوجود هذه الحياة.

وتنتشر هذه الصورة الشعرية فى ديوان الشاعر حتى ما كان منه رثاء، ففى رثائه **(أحمد رشدى)** تلميذه الذى أمضى معه معظم أوقات حياته يقول عنه "**زكى مبارك**": "كان آية فى صفاء النفس ولطف الروح، وكان تحفة من التحف، كان لامع الذكاء وكان صوته أرق من بغام الظباء".

وفى أماكن كثيرة من ديوان الشاعر "**زكى مبارك**" **(ألحان الخلود)** بكاء على فقيد الأدب "أحمد رشدى" نذكر منها قصيدة **(الخطاب الأخير)** **(يوم العيد بعد رشدى)**[1]، و**(إليك يا رشدى)**[2].

يقول فى الأخيرة:

هذا ربيعٌ وأنت ناءٍ وكنتَ أبْهَى من الربيع
والطَّير يشْدو وأنت ثاوٍ بمنزلٍ ساكتٍ قطيع
لو كنتُ أدرى ثراه طافتْ عليه من لوعةٍ دموعى
ما الدمع يُروى غليل قبرٍ مُخَضَّبٍ بالدَّم النَّجيع

وهنا يعبر الشاعر بالصورة عن شدة الحزن والألم والحب الذى كان يكنه للفقيد الذى عشق الحياة بكل ما فيها من (ربيع جميل وطيور شادية) فهو دائماً كان مكملاً لمظاهر الحياة بل أبهى منها.

(١) ديوان ألحان الخلود، ص ٦١.
(٢) الديوان نفسه، ص ٦٣.

وينجح الشاعر فى إبداع الصورة وتجسميها فى بعض الأحيان وتشخيصها البعض الآخر فيصبح الفقيد صورة جزئية تكمل بناء الصورة الكلية، وبهذه اللمسة الأخيرة للصورة الشعرية يكون الشاعر قد انتهى من إبداع الصورة التى امتدت لتحتوى معظم قصائده الرومانسية.

وهكذا يتضح أن الصورة الشعرية هى العلاقة التى يجريها الشاعر فى لغة القصيدة بين الألفاظ أو العبارات فتضفى على القصيدة لوناً من العاطفة وتكشف الخيال بحيث تبدو – فى النهاية – صورة جديدة. والصورة الشعرية هى الفن الذى يجسد الفكرة ويبرز مضمون القصيدة[١].

(١) دراسة فى لغة الشعر، رجاء عيد، ص ٤٢، م منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٧٩م.

الخاتمة

وبعد فقد كان موضوع هذه الدراسة (الاتجاه الرومانسى فى شعر **زكى مبارك**) وقد انتهيت إلى أنه تأثر بالاتجاه الرومانسى وقد برزت خصائص الرومانسية فى شعره وكان من أهمها:

أولاً: أشعاره الرومانسية تكاد تكون مقصورة على فن واحد هو فن الغزل والتشبيب يقول فى ذلك: "أنا وقفت شعرى على فن واحد وهو فن تشعب إلى أفنان وأفانين وهو فن الغزل والتشبيب ولعل هذا يرجع إلى طبيعة ذاتية قضت بأن أعيش للتغريد فوق أفنان الجمال".

ثانياً: ظاهرة الحزن تتموج ملتهبة فوق أبياته الشعرية الرومانسية وهو حزن أصيل حزن لم يكن له فيه إرادة فكان مصدر قوته الشاعرية ومنبع رومانسيته وبواعث وجدانه التى أنطقت الشاعر وأفصح عنها سياقه الشعرى.

ثالثاً: تضمنت رومانسيته النزعة الصوفية فبعض القصائد فى التشبيب لم تكن لها موحيات من الجمال الإنسانى وإنما كانت موحياتها من الجمل الربانى يقول فى ذلك:

رأيت فنائى فيك حين رأيتها تحاول إضلالى وتنشد إفنائى
ومن أنت يا ربى أجبنى فإننى رأيتك بين الحسن وا لزهر والماء

رابعاً: دقة الأسلوب والاهتمام بتشريح المعانى والعواطف تشريحات يصل بها إلى أعظم غاية من الأبيات وهذا يرجع إلى فطرته الفلسفية، ويتجلى ذلك فى رومانسيته بالإضافة إلى حسن السبك وجودة الصياغة مما تدل على قوة طاقته الشعرية.

خامساً: يحمل بفطرته قلب الشاعر وكان يحيا حياة شعرية فى كل ما يسمو بالعواطف والمشاعر والأحاسيس.

أما بخصوص موسيقاه الشعرية: فهو لا ينظم الشعر إلا إذا جاشت النفس وفاض القلب فكان يعيش بقلب الشاعر وعقد الفيلسوف وفى ذلك يقول: "لا استطيع الفرار من شيطان القوافى والأوزان فإن رأيت لى بيتاً أو مقطوعة أو قصيدة فلا تحسبنى كنت مختاراً فى صياغة الكلام الموزون وإنما هى أزمة وجدانية أو عقلية يعرفها من يعيش فى الوجود بقلب الشاعر وعقل الفيلسوف، وتتجلى لنا عدة نتائج نذكر منها:

- إن اتجاهه الرومانسى كان قبساً من قلبه وروحه وقطعة من حياته الوجدانية فليس فيها تزييف وإنما هى خواطر فاض بها القلب وعبر عنها بألحان الخلود.
- اهتمامه بتأكيد الشخصية الفردية حيث عبر عما يحسه فى حرية تامة وبجرأة وتحرر دفعه إلى الثورة والتمرد كما تغنى بالحب وللحب واندمج فى الطبيعة كما فعل الرومانسيون.
- كذلك تعددت لديه المؤثرات الفنية فى بناء القصيدة، فقد جدد فى لغة الشعر فاستعمل الكلمات الموحية والألفاظ الهامسة المألوفة كما جدد فى موسيقى الشعر فتصرف فى البحور المعروفة ونوع فى القافية وأكثر من الصور الشعرية.
- رومانسيته لم تكن مقفلة فى دائرة التعبير عن الذات وإنما كانت متفتحة على مشكلات مجتمعة وعلى الوجود كله.
- التراث الذى قدمه الشاعر فى الاتجاه الرومانسى يعد بكل المقاييس حلقة مهمة فى مسيرة الشعر العربى الحديث.

ثبت المصادر والمراجع

- د. أمال فريد، الرومانسية فى الأدب الفرنسى، درا المعارف ١٩٧٧م.
- د. العربى حسن درويش، زكى مبارك شاعراً، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- د. جوستاف لانسون، ترجمة محمود قاسم، تاريخ الأدب الفرنسى، ج٢، ط الألف كتاب، القاهرة.
- د. درويش الجندى، الرمزية فى الأدب العربى، م نهضة مصر، ١٩٥٨م.
- رجاء عيد، دراسة فى لغة الشعر، ط منشأة المعارف ١٩٧٩م.
- **د. زكى مبارك، (ديوان ألحان الخلود)**، م مصر، ١٩٨٨م.
- **د. زكى مبارك**، النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى، ج١، ط٢.
- **د. زكى مبارك**، الموازنة بين الشعراء، ط٣، مطبعة مصطفى الحلبى، القاهرة ١٩٧٣م.
- د. زكى نجيب محمود، مع الشعراء، ط٢، دار الشروق، ١٩٨٠م.
- طه وادى، جماليات القصيدة المعاصرة، دار المعارف، ١٩٨٢م.
- عبد الرحمن شكرى، (ديوان أناشيد الصبا)، م منشأة المعارف، ١٩٦٠م
- عبد الرحمن شكرى، (الديوان ج٤)، منشأة دار المعارف ١٩٦١م.
- د. عبد القادر القط، الاتجاه الوجدانى فى الشعر العربى المعاصر، م الشباب، القاهرة، ١٩٧٨م.
- د. عبد القادر القط، فى الأدب المصرى المعاصر، م مصر، ١٩٥٥م.

- كريمة زكى مبارك، زكى مبارك ونقد الشعر، م الزهراء للإعلام العربى، ١٩٨٦م.
- محمد إبراهيم أبو سنة، تأملات نقدية فى الحديقة الشعرية، الهيئة العامة، ١٩٨٩م.
- محمد محمود رضوان، عبقرى من سنتريس زكى مبارك الملاكم الأدبى، الهيئة العامة ٢٠٠٤.
- د. محمد غنيمى هلال، الرومانتكية، ط دار العودة، بيروت، ١٩٧٣م.
- د. محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر، دار المعارف ١٩٧٨م.
- د. يسرى العزب، القصيدة فى مصر، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- جريدة الأخبار ١٩٧٤/١١/٢٧م.
- جريدة أخبار اليوم ١٩٧٧/٨/٦م.
- مجلة أكتوبر مايو ١٩٧٧م.